

زهور

٣١

الحب والمعجزة

شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الجفاف ، فتشيع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحبَّ بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، هو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرِّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دَعْنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ ــ جِرَاح قلب ..

التفَّ الجميع حول كعكة عيد الميلاد ، التى تتوسَّط تلك المائدة الحافلة ، فى منتصف الرَّدْهة ، ليطفئوا شموع العيد ، التى ازدانت بها الكعكة ، ثم أحاطوا بصاحبة الحفل (غادة) ، وهم يصفِّقون ، ويهنئونها بعيد ميلادها الخامس والعشرين ، وإشراقة وجهها تؤكِّد مدى سعادتها وبهجتها بهذا الجو المحيط بها ، واجتذبها والدها من بين أصدقائها ، وانتحى بها جانبًا ، وقبَّلها بحنان أبوىّ صادق ، وهو يقول :

ــ كل سنة وأنت طيِّبة يا (غادة) .

رَنَتْ إليه بنظرة تشفُّ عن حبها وتقديرها له ، وهى تقول :

ــ وأنت طيب يا أبى .. لا يمكننى أن أعبِّر لك عن امتنانى وسعادتى ، لكل ما بذلته من أجل أن يبدو حفل عيد ميلادى بهذه الصورة الرائعة .

قرص وجنتها فى رِقَّة مداعبًا ، وهو يقول :

ــ أتنتظرين أقلّ من ذلك ، من أب يحتفل بعيد ميلاد

ابنته الوحيدة ، التى لا يتمنَّى من دنياه سوى سعادتها ، ورؤية وجهها بهذه الإشراقة ؟

اقترب منهما فى هذه اللحظة شاب متوسط الطول ، كستنائىّ الشعر ، يفيض بالحيويَّة والوَسامة ، وابتسم قائلًا :

ــ أتسمح لى بـ (غادة) قليلًا يا عمَّاه ؟

ابتسم الأب ، وقال ممازحًا :

ــ هاهو ذا منافس جاء يختطفك .

ضحكت قائلة :

ــ كان من الضرورىّ أن تنتبه لذلك ، قبل أن توافق على خِطبتى له .

التفت الأب إلى الشاب ، وقال :

ــ تصوَّر !!.. كانت تريد منّى أن أفكّر ، وأنا أرى كل هذا الحُبّ فى عيونكما .. حسنًا يا أستاذ (عادل) .. سأتركها لك ، ولكن لا تنسَ أن لديها الكثير من المدعوِّين هذا المساء ، فلا تكن أنانيًّا ، وتسرق السهرة كلها .

تركهما وانصرف يرحِّب بباقى المدعوِّين ، وبخاصَّة (جمال أبو الفتح) ، صاحب شركة المقاولات المعروف ، ووالد (عادل) ، فى حين تناول هذا الأخير من جيبه علبة من

القطيفة ، قدَّمها إلى (غادة) ، قائلًا :

ــ كل سنة وأنت طيِّبة .

فتحت (غادة) العلبة ، وهتفت فى إعجاب ، وهى تتطلَّع إلى السِّوار الماسىّ داخلها :

ــ إنه رائع يا (عادل) .

ورمقته بنظرة حُبّ وامتنان ، وهى تستطرد :

ــ يبدو أنه قد كلَّفك الكثير .

التقط كفَّها بين راحتيه ، وهو يقول فى همس :

ــ لا شىء فى العالم يغلو عليك .. أأعجبك حقًّا ؟

أطرقت فى حزن مفاجئ ، وهى تغمغم :

ــ كنت أتمنَّى هديَّة أخرى .. أن تخبرنى بأنك لن تسافر إلى (باريس) غدًا .

ــ كم تمنَّيت ذلك يا (غادة) ! ولكن سفرى حتمىّ ، لإنهاء رسالتى للدكتوراه فى (السُّوربون) .

ــ ولِمَ لَمْ تستكمل دراستك فى إحدى الجامعات المصرية ؟.. لماذا (السُّوربون) ؟

ــ إنها رغبة أبى كما تعلمين ، ثم إن الحصول على الدكتوراه هنا يستلزم المزيد من الجهد .

ومسح وجنتها بأنامله ، محاولًا إزالة العبوس عن وجهها ، قائلًا :

ــ لم أتصوَّر أن فراقنا سيحزنك إلى هذا الحدّ .. هيَّا .. دعيني أرى ابتسامتك فى عيد ميلادك .

قالت فى صوت لم يزايله الحزن بعد :

ــ ولكنك ستذهب إلى (باريس) غدًا .

ــ لقد أجَّلت سفرى خصيصًا ، لحضور عيد ميلادك ، ثم إنها ليست أوَّل مرَّة نفترق فيها ، وسأنهى رسالة الدكتوراه فى ستة أشهر فحسب ، وبعدها نتزوَّج ، ولا نفترق أبدًا .

ــ ولماذا ننتظر ؟.. لا شىء ينقصنا ، فلنتزوَّج ونسافر معًا .

ــ والدى يقول : إنه من الضرورىّ أن أستكمل دراستى أوَّلًا ، فالزواج ــ فى رأيه ــ سيشغلنى كثيرًا ، وخاصَّة مع إنجاب الأطفال ، وتضاعف المسئوليات ، ثم إن الدراسة ستقتطع الكثير من الوقت ، الذى ينبغى أن أمنحه إيَّاكِ .

ــ يا إلهى !.. ألم تتحرَّر بعد من أوامر ونواهى والدك ، وخططه الدقيقة لحياتك ومستقبلك ؟

ــ ولكنك تعلمين أن أبى كان وسيظلّ مثلى الأعلى دومًا ، فهو صاحب عقلية منظمة للغاية .. لقد عمل لصالحى دَوْمًا ، ومنهجه فى الحياة هو سرّ نجاحى وتفوُّق .

ــ لست أقلِّل من شأن والدك بالطبع ، ولست أعترض على أن يظلّ دَوْمًا مثلك لأعلى ، ولكن من الضرورى أن تكون لك شخصيتك المستقلَّة أيضًا ، وأن تخطِّط لمستقبلك بنفسك ؛ لأنك ستكون فى هذا المستقبل زوجًا وأبًا ، وليس من المستساغ أن ترجع فى كل خطواتك إلى أبيك حينذاك .

ابتسم فى توتُّر ، محاولًا الفرار من النقاش ، وقال :

ــ ألا ينبغى أن نؤجل تلك المناقشة لما بعد ؟. إن أصدقاءك ينتظرونك ــ كما قال والدك ، وسأسافر أنا إلى (باريس) غدًا ، فلنسعد بليلتنا إذن .

غمغمت فى استسلام :

ــ معك حقّ .

تشابكت أيديهما ، وهما يتجهان إلى أصدقائهما ، وعادت الابتسامة تشرق على وجه (غادة) ، مع اندماجها فى جوّ المرح ، ورفعت يدها إلى والدها ، هاتفة :

ــ أرأيت ذلك السِّوار الماسىّ ، الذى أهداه لى (عادل) يا أبى ؟

ابتسم والدها فى حنان ، وهو يقول :

ــ إنه رائع حقًا .. ألَمْ أقُلْ لك إن (عادل) هذا منافس شديد .. لقد أطاحت هديته الثمينة بهديتى المتواضعة .

انطلقت صيحات وشهقات الإعجاب من أفـواه الأصدقاء ، وهم يبدون تقديرهم لتلك الهدية ، فى حين حملت (غادة) إلى والدها طبقين من الحلوى ، وهى تقول :

ــ أين ذهب (عادل) وعمّى (جمال) يا أبى ؟.. إنهما لم يتناولا كعكة عيد ميلادى بعد .

أجابها قائلًا :

ــ أظنهما فى الشُرفة ، فقد رأيتهما يتجهان إليها مع الدكتور (صادق) .

هتفت فى مرح :

ــ حسنًا .. سأذهب خلفهما .

اتجهت نحو الشُرفة فى مرحها المتزايد ، ولكنها لم تكد تخطو إليها ، حتى سمعت والد (عادل) يهمس لابنه فى حزن :

ــ إنها الحقيقة يا ولدى .. على الرغم من كل مايغلّفها من حزن .. إن (غادة) مريضة ، والموت يهدّد حياتها فى كل لحظة .

هبط القول على (غادة) هبوط الصاعقة ، فتجمّدت فى مكانها لحظة ، وخفق قلبها فى عنف ، قبل أن تختبئ خلف خميلة من النباتات المتسلقة ، وتسمع (عادل) يقول مستنكرًا :

ــ مستحيل يا أبى !!.. مستحيل !.. (غادة) بكل حيويّتها مريضة ؟!.. لا يمكننى أن أصدّق ذلك .

أجابه والده :

ــ ما كنت أنـا أيضًا لأصدّق ذلك ، لولا أن أخبرنى الدكتور (صادق) .

ثم التفت إلى الدكتور (صادق) ، مستطردًا :

ــ أخبره بالحقيقة .

تنحنح الدكتور (صـادق) ، فى مزيج من الحرج والإشفاق ، وقال :

ــ صدّقنى يا ولدى .. لولا صداقتى لأبيك ، ولولا خطورة مرض (غادة) ، الذى لا تدرى عنه شيئًا ، والذى يجعل سنواتها فى الدنيا معدودة ، ما أخبرتك بالحقيقة .. ولكن تلك المسكينة تعيش بقلب مريض ، مهدّد بالأزمات دَوْمًا ، ولو تجاوزت بعضها ، فستأتى حتمًا أزمة قاتلة .. ولقد أوهمتها أنا ووالدها ، أن حالات الإغماء التى أصابتها فى الآونة

الأخيرة ، ليست سوى نتاج بعض الإجهاد ، ولكن أزمتها الأخيرة تشير ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ إلى أن قلبها قد بلغ حالة من الضعف تهدّده بالتوقُّف ، عند أوَّل أزمة قادمة .

راح (عادل) يهزُّ رأسه ، مردِّدًا فى ذهول :

ـ مستحيل !.. مستحيل !

فى حين بدا والده متقبِّلًا للواقع ، وهو يقول :

ـ حاول أن تبدو متماسكًا ، حتى لا تنتبه هى إلى ذلك ، فأنا حزين مثلك لمرضها ، ولكن يؤلمنى أن والدها قد أخفى حقيقة مرضها عنا ، على الرغم من معرفته بخطورته ، وهذا يُعَدّ نوعًا من الغش .

هتف (عادل) :

ـ ولكننى لن أتخلَّى عنها ، أيًّا ما كان الأمر .

اكتست ملامح الأب بالصرامة ، وهو يقول :

ـ كُفَّ عن هذا العبث .. إنه أمر يتعلَّق بمستقبلك ، ولقد عوَّدتك ألَّا تتعامل مع مستقبلك على هذا النحو العاطفىّ .. إن أفضل الفتيات والأسر تتمنَّاك ، ولا يوجد سبب واحد يدعوك إلى ربط مصيرك بمصير فتاة مريضة ، لمجرَّد الشفقة .

هتف (عادل) فى مرارة :

ـ ولكننى أحبها .

ـ الحب ليس كل شىء .. المهم هو مستقبلك .. ألم تسمع ما قاله الطبيب ؟.. إنها ستموت .. ولن يورثك هذا الحب سوى الآلام والحزن ، وخاصة إذا ما تعلَّقت بها كزوجة .

ملأ الألم وجه (عادل) ، وهو يقول :

ـ بالله عليك يا أبى .. لا تتحدَّث بهذه القسوة .. إننى .....

بتر عبارته بغتة ، عندما هوَت الأطباق التى تحملها (غادة) ، وتحطمت على أرض الشُّرفة ، وأطلق قلبها المريض صرخة ، حملت كيانه المتزلزل بتلك الصدمة ، وتفجَّرت الدموع من عينيها كالسيل .. وهَوَت ..

هَوَت بجرح غائر فى أعماقها ..

* * *



٢ ـ حِصارُ القَدَر ..

فتحت (غادة) عينيها ، وهى تشعر بالألم ، وشعرت بصداع شديد يكتنف رأسها ، وتبيَّن لها ، من خلال الضوء الخافت ، الذى تسلَّل إلى عينيها ، شبح وجهى والدها والدكتور (صادق) ، فعادت تغلق عينيها مرَّة أخرى ، وسمعت الدكتور (صادق) يقول لأبيها :

ـ حمدًا لله .. لم تؤثِّر الصدمة على قلبها .. إنها بضع كدمات فحسب ، بسبب سقوطها فى الشرفة ، ولم تعاودها الأزمة .

ردَّد الأب :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

ثم تطلَّع إلى ابنته بنظرة ملؤها الحزن ، مستطردًا :

ـ فليرأف بك الله يا بنيَّتى .. لا ريب أنها كانت صدمة قاسية .

عاد الدكتور (صادق) يهمس فى أذنه :

ـ سأسافر إلى (ألمانيا) غدًا ؛ لحضور مؤتمر علمىّ هام ، وسأعود بعد يومين .. فلا تتردَّد فى الاتصال بى سريعًا ، إذا ما تعرَّضت لأيَّة مضاعفات .

وتطلَّع مرَّة أخرى إلى (غادة) ، التى عادت تتظاهر بالنوم ، وأردف :

ـ والآن هيَّا .. فلنتركها تستريح .

لم يكد يصحب والدها إلى الخارج ، حتى فتحت (غادة) عينيها مرَّة أخرى ، وقد أغرقتهما الدموع ، وأدارت وجهها جانبًا ، وحاولت أن تمنع دموعها من الانهمار ، إلَّا أن هذا زاد من غزارة الدموع ، حتى بلَّلت وسادتها ، وعبارة الدكتور (صادق) تتردَّد فى أذنها :

ـ حتى ولو احتمل القلب بعض الأزمات ، فستأتى حتمًا أزمة قاتلة .

تناهَى إلى مسامعها صوت الباب يُفتح مرَّة أخرى ، ووقع أقدام والدها يقترب من فراشها ، قبل أن يقول بصوت يعتصره الحزن .

ـ (غادة) .. أمازلت نائمة ؟

أجابته فى صوت اختنق بالعبرات ، دون أن تدير وجهها إليه :

ـ لا يا أبى .. إننى مستيقظة .

ـ حمدًا لله يابنتى .. حمدًا لله على سلامتك .

امتزج حزنها بشىء من الغضب ، وهى تقول :

ـ لماذا يا أبى ؟.. لماذا أخفيت عنّى الحقيقة ؟

أجابها فى صوت يحمل أطنانًا من الأسى والأسف :

ـ لم أشأ إيلامك يا بنيّتى .. كان لدىَّ دوْمًا أمل فى تشخيص أفضل ، أو علاج جديد .. لقد طلبت الحصول على إجازة من عمل فى الشهر القادم ، لأصطحبك إلى (لندن) ، وكنت سأخبرك آنذاك .

قالت فى مرارة :

ـ وما الذى يمكن أن يقدمونه فى (لندن) ، لقلب يحتضر ؟

غمغم الأب فى ضراعة :

ـ لا تقولى هذا يا بنيّتى .. إننا لم نفقد الأمل بعد .. ربما كان تشخيص (صادق) خاطئًا .

استدارت تواجهه بعينين مغرورقتين بالدموع ، قائلة :

ـ كان من الضرورى أن تخبر (عادل) ووالده .. كان من الواجب أن يعلم ، أن الفتاة التى خطبها تحمل بين ضلوعها قلبًا عليلًا .. هذا أفضل من أن نخدعه .

أجابها فى حزن :

ـ (عادل) يحبك ، وسيتمسَّك بك ، أيًا ما كان الأمر .

سألته فى لهفة ورجاء :

ـ أهو هنا ؟

سعل فى حرج ، قبل أن يجيب :

ـ لا .. لقد سافر لاستكمال دراسته ، كما تعلمين .

اكتسى وجهها بتعبير حزين ، وهى تقول :

ـ كما أعلم ؟.. إننى أعلم أنه قد سافر وتركنى وحدى ، فاقدة الوعى ، وهو يعلم أننى أقرب إلى الموت منّى إلى الحياة .. ودون كلمة وداع واحدة .

حاول الأب أن يهوِّن عليها الأمر ، مغمغمًا :

ـ أنت تعلمين كم كان سفره ضروريًا .

ـ كان يمكنه أن يؤجِّله بضع ساعات ، حتى أستعيد وعيى على الأقل .

ـ ولكنه ظلَّ ساهرًا إلى جوارك طيلة الليل ، وأنا الذى

ألححت عليه بالسفر ، فلم يكن وجوده ليفيدك بشىء .. فلقد ارتبط بموعد مع أستاذه فى (السوربون) ، وأنت تعلمين كم يُعقِّد هؤلاء الأوروبيُّون مسألة الوقت والمواعيد .

حاول أن ينطق العبارة الأخيرة بشىء من المرح ، ولكنها غمغمت فى صوت كسير حزين :

ــ ألن يتركنى حقًّا ؟

ــ كيف تقولين هذا ؟.. أنت تعلمين كم يُحبك (عادل) و .....

ــ وماذا ؟.. إنه لا يستطيع مخالفة أوامر أبيه ، ووالده يعترض على زواجه منّى الآن ، بعد أن علم بحقيقة مرضى .. إنه يريد له زوجة سليمة ، تُنجب أطفالًا أصحّاء ، وتكون عونًا له فى حياته العملية ، ومستقبله الباهر ، الذى يعدّه له ، وأنا أخالف هذه الشروط الآن .

عادت العَبَرات تكسو وجهها ، دون أن تقوى على كبحها ، فغمغم الأب فى إشفاق :

ــ أرجوك يا بنيَّتى .. لا تفعلى ذلك بنفسك ، فلست أحب أن أرى دموعك ، ثم إن هذا الانفعال يسبِّب لك الأضرار .. أؤكِّد لك أن (عادل) ، يحبك ، وأنه .....

قاطعته فى مرارة :

ــ اتركنى وخذِى يا أبى .. أرجوك ..

ــ ولكن .....

ــ أتوسَّل إليك .

مزَّقت لهجتها نياط قلبه ، ولكنّه لم يجد بُدًّا من الانصياع لرغبتها ، فغادر الحجرة ، مغمغمًا :

ــ كما تحبِّين يا بنيَّتى ، ولكن حاولى التغلُّب على أحزانك فى سرعة ، رحمة بك وبى .

ولم تكد (غادة) تتأكَّد من مغادرته حجرتها ، حتى أطلقت العِنان لدموعها مرَّة أخرى ..

وفاض حزنها أنهارًا ..

* * *

فجأة .. وبعد أن سكبت من عينيها فيضًا من الدموع ، قرَّرت (غادة) أن تنفض عن نفسها كل هذا الحزن ، فغادرت فراشها ، واستقبلت والدها بابتسامة كبيرة ، وهى تطبع على وجنته قُبلة طويلة ، وكأنها تعتذر بها عن كل ما سبَّبته له من حزن وأسى ، وقد وطَّدت العزم على أن تتعامل مع مرضها كحقيقة واقعة ، فتلمّ بكل التعليمات اللازمة ،

والأدوية المطلوبة ، وتقبل الخضوع لمزيد من الفحوصات والتشخيصات ، التى قد تُعيد إلى قلبها المريض صحته وعافيته ، وألَّا تستسلم أبدًا ، ما دام الأمل قائمًا ، وما دامت لا حيلة لها فيما سيحدث ..

إنها ستحيا مع قدرها ، وتتعايش معه ، ولن يسرق منها قلبها المريض حبّها للحياة ، ولا تفاعلها معها ..

هذا ما استقرَّ عليه تفكيرها ، بعد أيام مريرة ، سجنت فيها نفسها فى حجرتها ..

ولقد انعكس هذا التحوُّل على الأب نفسه ، فانفرجت أساريره ، وهو يقول فى حنان :

ــ هاهى ذى (غادة) التى أعرفها ، تعود من جديد .. الآن فقط أقول لك ، من كل قلبى .. حمدًا لله على سلامتكِ .

داعبته قائلة :

ــ أما أنا فأرى أبًا يختلف عمَّن أعرف ، فلقد شحب وجهك ، وانخفض وزنك كثيرًا ، ويبدو أنه قد حان دورى لأعتنى بك ، بعد عودتى من الخارج .

سألها فى قلق :

ــ أتنوين الخروج ؟

ــ نعم .. لقد مللت الفراش ، سأغادر المنزل ، وأتنزَّه بعض الوقت فى الطرقات ، وأتنسَّم الهواء النقى ، بعيدًا عن حجرتى الكئيبة .

ــ حسنًا .. سأعدّ السيارة لنخرج معًا .

ــ لا .. لا تعطِّل نفسك من أجلى .. لقد اقترب موعد ذهابك إلى العمل ، ثم إننى أحب أن أتنزَّه على قدمىَّ ، وأجوّل بمفردى .. وصدِّقنى .. سيُنعش هذا نفسيتى كثيرًا .

ــ حسنًا يا بنيَّتى ، فقط اعتنى بنفسك ، ولا تبذلى الكثير من الجهد ، و.....

قاطعته ، وقد ذكَّرها أسلوبه بمرضها :

ــ اطمئن يا أبى .. سأحرص على كل هذا .. سأتعلَّم كيف أتعامل مع نفسى بمزيد من الحَذَر ، ولن أبذل حتى ما يماثل مجهودِ فتاة عادية ، وعند أدنى ألم سأتناول قرصين من تلك العلبة ، التى أحتفظ بها فى حقيبتى ، وأعود إلى المنزل على الفَوْر ، وأتصل بالدكتور (صادق) .. أليس كذلك ؟

وتنهَّدت فى عمق ، قبل أن تستطرد فى صوت تشوبه المرارة :

— اطمئن يا أبى .. أعلم جيدًا أنه لم يَعُد لى حقُّ التصرُّف على نحو طبيعى كالأخريات .

وأسرعت تغادر المنزل ، قبل أن تشملها موجة أخرى من الحزن ، ووالدها يشيّعها بنظرات تشفّ عن مدى إحساسه بمعاناتها ، التى تفوق خطورة مرضها ..

أمّا هى ، فقد راحت تجوّل فى الحىّ السكنىّ القريب ، وقد خُيّل إليها أنها ترى تلك المساكن والأماكن لأوّل مرّة ، على الرغم من غُدُوّها ورواحها أمامها طيلة عمرها ..

وكان الجوّ صحوًا ، فى ذلك اليوم من أيام الربيع ، وقد أينعت الزهور ، وأرسل الصباح نسائمه المنعشة ، التى تداعب الأبدان والأفئدة ، وراحت (غادة) تحثّ نفسها على الاستمتاع بكل هذا ، وهى تستنشق الهواء فى عمق ، وتتأمّل الزهور بنظرة شاعر فنان ، حتى امتلأت نفسها بشاعرية لم تعهدها فى نفسها من قبل ، وكأنما جعلها كشف حقيقة مرضها تُدرك قيمة الحياة ، وتتمسّك بالاستمتاع بكل لحظة من لحظاتها ، وبكل ما منحته الطبيعة لهذا العالَم من جمال .

واستقلّت الحافلة النهرية ، لتعبُر بها إلى الجانب الآخر من النيل ، الذى بدا لها رائعًا بمياهه العذبة الصافية ، التى أنستها

حتى محاضرتها التقليدية عن سوء استخدام المصريين لمياه النيل ، وعن ذلك اليوم الذى شاهدت فيه من سيارتها مجموعة من الناس ، انهمكوا فى غسيل ثلاثة جياد بمياه النيل ، والكل يسبح فيها ..

كل هذا نسيته ، وهى تتطلّع إلى أجمل مياه فى العالم ، حتى بلغت الضفة الأخرى من النيل ، فغادرت الحافلة النهرية ، وراحت تسير فى الشارع الموازى لنهر النيل ، حتى بلغت مكتبة كبيرة ، دفعت بابها فى ألفة ، ودلفت إليها ، فابتسم صاحب المكتبة ، على نحو يُوحِى بأنه يعرفها جيدًا ، وهو يقول :

— مرحبًا يا آنسة (غادة) .. إننا لم نَرَكِ منذ زمن طويل .

ابتسمت قائلة :

— كنت مشغولة بعض الشىء .

اندفع يقول فى حماس :

— لقد أحضرت لك بعض الروايات الرومانسية القديمة ، التى تفضلينها دومًا ، وسوف تنال إعجابك بإذن الله .. أتعلمين أننى قد ابتعتها لك خصيصًا من مكتبة عتيقة فى أحد أحياء (طنطا) ؟.. لقد أصرَّ صاحب تلك المكتبة على الاحتفاظ بمجموعته ، ولكننى أقنعته ببيعها ، و......

قاطعته قائلة :

ــ حسنًا .. سآخذها كلها ، ولكننى أريد منك أن تبحث لى أوّلًا عن كتاب متخصِّص فى أمراض القلب

تطلَّع إليها الرجل فى دهشة ، وهو يقول :

ــ أمراض القلب ؟! .. إنها أوَّل مرَّة تطلبين فيها كتابًا من هذا النوع ، لقد عهدتك دوْمًا .....

قاطعته مرة أخرى فى إصرار :

ــ هذا صحيح ، ولكننى أريد هذا الكتاب .. أأجده لديك أم لا ؟

أجابها ولم تفارقه دهشته بعد :

ــ ستجدينه بالطبع ، ولكنه كتاب تخصُّصى باللغة الإنجليزية ، و .....

قاطعته للمرة الثالثة :

ــ سآخذه .

سألها فى حَيْرَة :

ــ ألن تطالعى الروايات الرومانسية القديمة ؟

أجابته فى حزم :

ــ لا داعى .. سآخذها كلها مع الكتاب .

هزَّ كتفيه مستسلمًا ، وهو يقول :

ــ حسنًا .. سيبلغ ثمن المجموعة ستين جنيهًا .

منحته النقود ، وهو يلفّ المجموعة بورق أنيق ، قبل أن يغمغم فى حزن :

ــ أتعلمين أنك باختيارك هذا الكتاب قد حرَّكت فى نفسى الحزن يا آنسة (غادة) ؟

سألته فى فضول :

ــ لماذا ؟

أجابها فى حزن :

ــ أتذكرين عمّ (على) ، الذى كان ينظف المكتبة هنا ؟

ــ نعم .. أذكره بلا شكّ .. إنه ذلك الطيب ، ذو الوجه الممتلئ ، الذى كان يستقبلنى دوْمًا بابتسامة حنون ، ونظرات أبويَّة .. أين هو ؟

ــ لن يستقبلك بعد الآن للأسف .. لقد تُوفِّىَ فى الأسبوع الماضى .

هتف فى لوعة :

ــ تُوفِّىَ ؟! .. كيف ؟

ــ فاجأته أزمة قلبية أوْدَت بحياته .. لقد سقط بين يدىَّ ،

هنا فى المكتبة ، ولم يمكننا أن نفعل شيئًا له .. ولقد .....

اندفعت فجأة تغادر المكتبة ، وقد بدت لها كلماته كخنجر قاسٍ يخترق قلبها ، وهتف الرجل يناديها فى دهشة ، ولكنها لم تسمعه ..

كانت صورة عمّ (على) تملأ ذهنها ، وهو يسقط صريع تلك الأزمة القلبية ، التى افترسته دون هوادة ، وقد عاد ذلك الطنين المزعج إلى رأسها ، وأطلّت من عينيها نظرة هَلَع ، وقد بدا لها أن مرضها اللعين يحيط بها من كل جانب ، ويفرض حصاره عليها ، ويتربّص بقلبها المريض فى كل خطوة ..

وفجأة .. تراخى ذراعاها ، وسقطت حقيبتها ، وراحت تلهث فى شدة ، وقد سرَى وخز شديد فى صدرها ، راح يتزايد فى سرعة ، حتى بدا كخناجر حادّة تخترق قلبها ..

وامتلأت عيناها بصورة جمع من المارة يحيط بها فى جزع وفضول ، ثم تجمّدت قدماها ، و .....

وسقطت (غادة) ..

* * *

٣ ـ لَوْعَة أب ..

اندفع الأب عَبْرَ أروقة مستشفى قصر العينى كالمجنون ، يسأل كل من يلتقى به من ممرضات وأطباء عن ابنته ، حتى قالت له إحدى الممرضات ، فى محاولة لتهدئته :

ـ ابنتك ليست هنا حتمًا ، فأنت تقول إنها مصابة بمرض قلبىّ ، وهذا قسم العظام .

قال الأب الملتاع :

ـ أرجوك يا بنيّتى ، ساعدينى على الوصول إلى قسم أمراض القلب .. إننى متوتّر للغاية ، ولست أدرى كيف أسلك طريقى هنا .

قالت فى هدوء :

ـ لا بأس .. اتبعنى .

سار خلفها مترنّحًا كالذبيح ، حتى بلغ نهاية دهليز كبير ، فاستوقفت هى إحدى زميلاتها فى قسم أمراض القلب ، وقالت :

ـــ هذا الرجل يبحث عن ابنته ، ساعديه على العثور عليها هنا .

قالت زميلتها فى برود ، وكأنما اعتادت مثل ذلك التوتُّر والقلق والشحوب ، على وجه الأب :

ـــ ما اسمها ؟.. ومتى دخلت إلى المستشفى ؟

قال الأب فى لَوْعة :

ـــ اسمها (غادة).. (غادة عز الدين).. ولقد هاجمتها نوبة قلبية هذا الصباح ، فقدت على أثرها الوعى ـــ حسبما يبدو ، ولقد أخبرونى أن سيارة إسعاف نقلتها إلى هنا .

أجابته الممرضة بنفس البرود :

ـــ آه .. أتقصد تلك الفتاة التى أحضروها فى العاشرة ؟.. لقد نقلوها إلى غرفة العناية المركَّزة .

فغر المسكين فاه ، وراح يردِّد فى انهيار :

ـــ العناية المركَّزة ؟!.. أبلغت حالتها هذا الحدّ من الخطورة ؟

كان الأطباء يغادرون إحدى حجرات الجراحة ، وقد توسَّطهم شاب طويل القامة ، قصير الشعر ، حادُّ النظرات ، تشفُّ ملامحه عن الذكاء والوسامة ، وقد أحاط به زملاؤه

باهتمامهم ، بعد أن انتهى على التوّ من إجراء إحدى العمليات الجراحية ، فالتفوا حوله ، وراحُوا يناقشونه فى مراحل العملية فى اهتمام بالغ ، كما لو كانوا تلاميذ يلتفُّون حول أستاذهم ، على الرغم من أن بعضهم يفُوقه عمرًا بكثير ، فاندفع الأب نحوه ، هاتفًا فى يأس ومرارة :

ـــ ابنتى يا دكتور .. أرجوك .. ماذا أصابها ؟

أبعده أحد الأطباء عن الطبيب الشاب فى هدوء ، وهو يقول :

ـــ اهدأ يا رجل .. لقد وصل الدكتور (نبيل) من (لندن) أمس فقط ؛ لإجراء بعض العمليات الجراحية المتطوِّرة ، ولا شأن له بابنتك .

قال الأب وقد أصابه انهيار تام :

ـــ ولكن أين ابنتى .. لقد قيل لى إنها فى حجرة العناية المركَّزة ، فى حالة بالغة الخطورة ، أريد أن أراها .. أرجوكم .

أجابه الطبيب بنفس الهدوء :

ـــ لن يسمح لك أحد برؤيتها ، ما دامت فى حجرة العناية المركَّزة ، وثق أنها تحت رعاية الطبيب المختصّ هناك بصفة دائمة ، وهنا حجرة العمليات .. أما حجرة العناية المركَّزة ، فهى هناك ، فى نهاية الممرّ ، و .....

استوقفه الدكتور (نبيل) ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ ماذا أصاب ابنته ؟

التفت إليه الطبيب ، قائلًا :

ـ إنها تلك الفتاة ، التى أحضروها هذا الصباح ، مصابة بنوبة قلبية حادَّة ، مما استدعى دخولها حجرة العناية المركَّزة .

عاد الدكتور (نبيل) يسأله فى اهتمام :

ـ ومن يشرف على حالتها ؟

أجابه فى بساطة :

ـ الدكتور (منير) ، نائب رئيس قسم القلب .

تفرَّس الدكتور (نبيل) فى وجه الأب فى اهتمام ، ثم قال :

ـ أيمكننى رؤيتها ؟

ـ بالطبع .. لو أنك ترغب فى ذلك ، فهى ليست ضمن الحالات المقرَّر عرضها عليك .

ـ لا بأس .. يمكننا أن نضمّها إليها .

ـ كما تحب يا دكتور (نبيل) .

استدار الدكتور (نبيل) ، كما لو أنه سينصرف ، ثم لم يلبث أن توقَّف بغتة ، والتفت إلى الأب يسأله :

ـ ألم نلتقِ من قبل ؟

تهالك الأب فوق مقعد قريب ، وهو يقول بنظرات زائغة :

ـ لست أدرى .. لست فى حالة تسمح لى باجترار ذكريات سابقة .

تطلَّع إليه (نبيل) فى إمعان ، وهو يعتصر ذهنه ، قائلًا :

ـ ولكننى متأكِّد من معرفتى لك .

اتسعت عيناه فجأة ، وهتف :

ـ نعم .. لقد تذكَّرتك .. أنت (عز الدين بك شوكت) .. ألا تذكرنى ؟

تطلَّع إليه الأب بعينين متثاقلتين ، لم يلبث أن خفضهما ، مغمغمًا :

ـ أنت (نبيل) .. (نبيل سالم) .. أليس كذلك ؟

ابتسم الدكتور (نبيل) لأوَّل مرَّة ، وبدت وسامة ملامحه واضحة ، بعد أن انهار قناع الجمود عنها ، وهو يقول :

ـ نعم يا عمِّى (عز الدين) .. أتذكرنى ؟

لم يجب الأب عن سؤاله ، وإنما تعلَّق بذراعه ، هاتفًا :

ـ (نبيل) .. أقصد دكتور (نبيل) .. إن (غادة) تموت .

قطَّب (نبيل) حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ (غادة)؟.. أهى التى ..... ؟

قاطعه الأب منتحبًا :

ـــ نعم يا (نبيل) .. ابنتى الوحيدة ، التى لم أنجب سواها .. إنها تموت .

ازداد انعقاد حاجبى (نبيل) ، واتسعت عيناه فى قوة ، ثم التفت إلى زميله ، قائلًا فى حزم :

ـــ سأذهب على الفور إلى حجرة العناية المركَّزة ، أبلغهم أننى سأتولَّى أمر هذه الحالة ، منذ اللحظة ، وأريد تقريرًا شاملًا عن حالتها .

كانت حجرة العناية المركَّزة متسعة فسيحة ، تنتشر فيها أسرَّة نظيفة معقَّمة ، وعدد من أحدث الأجهزة الطبية ، كما توزَّعت فيها الإضاءة على نحو جيِّد ، لم ينجح فى إزالة تلك الرهبة ، التى صنعها السكون الرهيب ، ومشهد الخيام البلاستيكية المعقَّمة ، التى رقدت (غادة) تحت إحداها ..

وتطلَّع الدكتور (نبيل) إلى وجه (غادة) الشاحب ، من خلف الخيمة الشفَّافة ، وقد أخفى قناع الأكسوجين نصف الوجه ، واتصلت عشرات الأنابيب بعروقها ، وتناثرت

خصلات شعرها الأسود فوق الوسادة ، فمنحتها جمالًا لم يحجبه الشحوب ..

وغمغم (نبيل) فى أعماقه :

ـــ أهكذا نلتقى ، بعد سنوات الفراق يا (غادة) ؟

أيقظه صوت الدكتور (منير) ، وهو يناوله تقرير (غادة) ، هامسًا :

ـــ هاهو ذا التقرير الخاصّ بها .. إنها مصابة بجَلطة فى الشريان التاجىّ .. لقد حاولنا تنشيط قلبها بالصدمات الكهربائية ، ولكننا فشلنا ، والأدوية المذيبة لجلطات الشرايين لم تُعط نتيجة حاسمة ، لضيق الشريان الشديد .

قال فى اهتمام :

ـــ ولِمَ لانحاول إجراء التدخُّل الجراحى ؟

أجابه الدكتور (منير) :

ـــ القلب لايعمل بكفاءة تامة ، فأحد الصمامين تالف تمامًا ، فى حين لاتتجاوز كفاءة الثانى ثلاثين فى المائة ، مما يجعل التدخُّل الجراحى بالغ الخطورة .

صمت الدكتور (نبيل) بعض الوقت ، وهو ينقِّل بصره ما بين التقرير ووجه (غادة) ، ثم قال :

ـ تلك الأدوية التى تتناولها جيِّدة ، ولكنَّ لدىَّ دواءً حديثًا أكثر فاعلية ، سأحقنها به بنفسى ، ولكن أرجو أن تتخذوا كافة الاستعدادات لتنشيط القلب كهربيًّا .

غمغم الدكتور (منير) :

ـ يبدو أن هذه المريضة تهمّك كثيرًا .

رمق (نبيل) (غادة) بنظرة محبّ ، قبل أن يقول :

ـ أكثر مما تتصوّر .

اتُّخِذَت الإجراءات اللازمة فى سرعة ، على حين ارتدى الدكتور (نبيل) كمامته الواقية ، بعد أن غادر حجرة التعقيم ، ودلف إلى الخيمة البلاستيكية لحقن (غادة) ..

وفى الخارج ، استوقفه الأب ، وسأله فى لهفة وقلق :

ـ كيف حالها الآن ؟

أجابه (نبيل) فى هدوء :

ـ مازالت غائبة عن الوعى ، ولكن اطمئن .. إننى أرعاها .

ـ أيمكننى رؤيتها ؟

ـ يحسن ألّا تفعل ، فهى تجتاز مرحلة خطر ، و .....

ـ أرجوك .. دعْنى أرها ولو لحظة واحدة .. أعدك أنها لحظة واحدة .

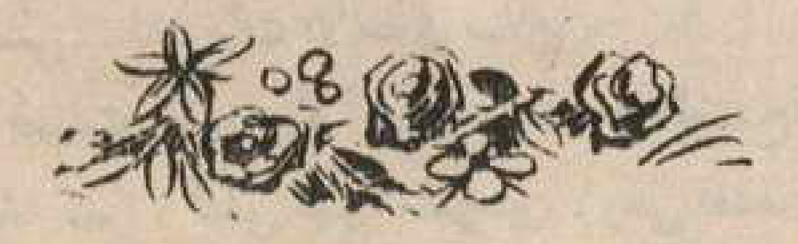
ـ حسنًا .. يمكنك أن تراها ، على أن تعدنى بأن تغادر المستشفى بعدها ، وتتجه فورًا إلى منزلك ، فأنت تحتاج إلى قسط من الراحة ، وبعدها يمكنك العودة للاطمئنان عليها غدًا ، واترك لى رقم هاتفك وعنوانك ، وسأبلغك بأى تطوُّر يحدث .

أومأ الأب برأسه إيجابًا فى استسلام ، وتبعه إلى الداخل فى صمت ، واختنقت العبرات فى عينيه ، وهو يلقى نظرة على ابنته ، ثم يفرّ من الموقف فى سرعة ..

وعندما ابتعد ، كان قلبه يبكى ..

يبكى بدموع من دم ..

* * *



٤ ــ الحُبّ الأوَّل ..

فى بطء وضعف ، فتحت (غادة) عينيها ..

كانت الحجرة تسبح فى ضوء خافت ، يضفى عليها نوعًا من الهدوء والسكينة ، ولكن ضعف (غادة) الشديد ، وتأثير المخدر عليها ، جعلاها عاجزة عن تبيُّن ما حولها بُرْهَة ، ثم لم تلبث المعالم أن اتضحت نوعًا ما ، وإن غابت عنها التفاصيل ، فلم تتبيَّن مَنْ ذلك الذى يقف إلى جوارها سوى أنه طبيب ، يرتدى معطفًا أبيض اللون ، فغمغمت فى وهن :

ــ أين أنا ؟.. من أنت ؟

مال عليها الدكتور (نبيل) ، يقول فى رفق :

ــ أنت فى حجرتك بالمستشفى ، وأنا طبيبك المعالج .. اطمئنى .. لقد مرَّت الأزمة فى سلام .

أسبلت جفنيها مرَّة أخرى ، وبدا من الواضح أنها تبذل جهدًا كبيرًا ؛ لتبقِىَ عينيها مفتوحتين ، وهى تغمغم :

ــ يلُوح لى أننى أعرفك .

ابتسم (نبيل) ، وهو يهمس :

ــ أظن أن ست سنوات ليست بالفترة الضخمة ، لتنسينى تمامًا هكذا .

بدت الدهشة فى عينيها ، وإن عجزت عن ترجمتها إلى صيحة تعبِّر عمَّا جاش به صدرها ، وهى تقول فى ضعف :

ــ نبيل ؟!

حملت ملامحه عاطفة قويَّة ، وهو يغمغم :

ــ نعم يا (غادة) .. (نبيل) .. كم يؤسفنى أن يأتى لقاؤنا الأوَّل ، بعد كل تلك السنوات ، وسط هذه الظروف السيئة ، ولكن كل شىء سيمضى على ما يرام ، فأنت الآن أحسن حالًا عن ذِى قبل ، وستزداد حالتك تحسُّنًا بمرور الوقت .. فقط أريدِ منك أن تهدئى تمامًا ، وتنصاعِى للتعليمات .

قالت فى أنين حزين :

ــ أخبرنى بالحقيقة يا (نبيل) .. كم بقى لى من وقت ، قبل أن أموت ؟

أجابها فى صرامة نوعًا ما :

ــ لست أحب سماع تلك العبارات اليائسة .. لقد وعدتك بالتحسُّن ، ألا تثقين بوعودى ؟

جاهدت لتفتح عينيها ، وتملأهما بصورته ، وهى تغمغم :

ــ إنك دوْمًا موضع ثقتى يا (نبيل) ، حتى عندما تركتنى ورحلت ، منذ ست سنوات .

بدا من الضيق ، الذى ارتسم على ملامحه ، أن تلك العبارة قد أعادت إليه ذكرى سيئة ، فغمغم محاولًا إبدال الموضوع :

ــ سأتركك الآن ، فأنت بحاجة إلى الراحة والهدوء ، ولست أطالبك إلّا بالراحة ، والالتزام بمواعيد الدواء ، وتعليمات العلاج ، وسأُتابعك يوميًّا .

قالت فى صوت واهن ، عندما بدا لها أنه سيغادر الحجرة :

ــ أتتركنى هكذا ، سريعًا ؟

حاول أن يهزم مشاعره ، وهو يقول :

ــ لا تنسى أنك لست مريضتى الوحيدة .

أجابته فى انكسار :

ــ حسنًا .. لن أشغلك عن باقى مرضاك ، فلست سوى أحدهم .

عاد يقترب من فراشها ، قائلًا :

ــ أترغبين فى شىء ؟

أجابته بصوتها الواهن :

ــ نعم .. أريد أن أرى أبى .

أجابها فى حنان ، وهو يتأمَّل وجهها الشاحب :

ــ إنه ينتظر خارج الحجرة .. سأسمح له بالدخول لدقيقتين فحسب ، فما زلت متعبة ، وهو فى أسوإ حالات الحزن والقلق ، ويا ليتك تبدين بعض التفاؤل ، لتُطَمْئِنى قلبه ، كما أرجو ألا ترهقى نفسك كثيرًا .. من أجلى .

قالها وأسرع يغادر الحجرة ، قبل أن تغلبه مشاعره أمامها ، ووجد والدها يقف خارج الحجرة ، وعيناه متعلقتان ببابها فى قلق ولهفة ، فقال له بلهجة واثقة مطمئنة :

ــ يمكنك أن تدخل إليها الآن .. ولكن أرجوك أن تنزع من عينيك تلك النظرة البائسة ، فقلبها لن يحتمل لوعتها عليك ، ومن الواجب أن نمنحها جميعًا شعورًا بالأمل والتفاؤل .. هل تفهمنى ؟ ..

أجابه الأب فى استسلام :

ــ نعم .. اطمئن .

أفسح له (نبيل) الطريق ، وراح يراقبه حتى بلغ سرير ابنته ، ثم أغلق الباب فى هدوء ..

وكانت (غادة) قد عادت تستسلم إلى المخدّر ، فأغلقت عينيها ، وارتخى جسدها ، وإن لم تغب عن الوعى تمامًا ، فوقف الأب أمامها مترددًا ، حائرًا ما بين لهفته على إيقاظها ، والاطمئنان على صحتها ، وضرورة منحها أكبر قدر من الرّاحة والسكينة ، إلّا أن (غادة) أنقذته من حَيْرَته ، عندما فتحت عينيها فى صعوبة ، حين شعرت بوجوده إلى جوارها ، واستقبلته بابتسامة شاحبة واهنة ، عجز ضعفها على منحها الإشراقة المعتادة ، وهى تقول فى ضعف :

ـــ أبى .

اتسعت ابتسامة الأب ، وامتلأت بالحنان ، وهو يقول :

ـــ غادة .. ابنتى الحبيبة .

غمغمت ، محاولة التغلب على إعيائها :

ـــ تعالَ يا أبى .. اجلس إلى جوارى .

ـــ جلس على طرف فراشها ، وأحاط رأسها بذراعه فى رفق وحنان ، وراح يربِّت على يدها بيده الأخرى ، وهو يقول :

ـــ لقد أخبرنى الطبيب أنك قد اجتزت الأزمة ، وأنك الآن على ما يرام .. لا يمكنك تصوُّر مدى قلقى ، عندما أخبرونى بما أصابك .. ولقد اتخذت كل ما يلزم ، لنقلك إلى مستشفى الدكتور (صادق) الخاص ، بمجرَّد تحسُّن حالتك ، و .....

بدا وكأنها لم تكن تنصت له ، وهى تسأله :

ـــ ألم تتعرَّف ذلك الطبيب يا أبى ؟

أحرجه سؤالها المباغت ، فغمغم مرتبكًا :

ـــ آه .. نعم .. يبدو أنه .....

قاطعته وهى تقول ، ضاغطة على كل حرف من حروف كلماتها :

ـــ إنه (نبيل) يا أبى .. ألا تذكره ؟ (نبيل سالم) .

غمغم الأب :

ـــ نعم .. لقد عرَّفنى نفسه .

ثم استطرد فى سرعة ، وكأنما يحاول الفرار من الحديث فى هذا الشأن :

ـــ حمدًا لله أنك بخير .. لقد طلب منّى طبيبك ألّا أرهقك بزيارتى ؛ لذا فسأتركك الآن ، وأعود فيما بعد ، و .....

قالت فى لهفة ، تشفُّ عن مدى شعورها بالوحدة :

ــ متى ؟

ابتسم ابتسامة فاترة ، وهو يقول :

ــ لن أغادر المستشفى على أية حال .. ثم إننى أتبع تعليمات الأطباء ، بشأن الزيارة .

سألته فجأة :

ــ ألم تتصل بـ (عادل) وتخبره بأمرى ؟

غمغم فى حرج :

ــ لا داعى لأن نقلقه بشأنك .. أنت تدركين أعباء دراسته ، ولقد مرَّت الأزمة فى سلام .

سألته فى لهجة أقرب إلى الاستعطاف :

ــ قد أبدو لك أنانية يا أبى ، ولكننى أريد منك أن تُبلغ (عادل) بحالتى .. أرسل له برقية .. أرجوك .. افعل ذلك من أجلى .. أريد أن أعرف حقيقة موقفه تجاهى ، بعد أن علم بحقيقة مرضى .. أرجوك .

ــ أليس من الأجدى أن تهتمّى بصحتك ، وتتركين الأمور للمستقبل .

قالت فى انفعال لا يتناسب مع ضعفها :

ــ أرجوك يا أبى .. افعلها من أجلى .

أشفق عليها من ذلك الانفعال ، فربَّت عليها ، وهو يقول مهدئًا :

ــ سأفعل يا بنيَّتى .. سأفعل .. اهدئى ..

استرخت فى فراشها ، وكأنما ملأتها عبارته بالارتياح ، حتى أنها ذهبت فى نوم عميق ، قبل أن يغادر والدها الحجرة ، فاكتفى هو بمنحها نظرة حزينة ، ثم غادر الحجرة فى هدوء ..

* * *

استيقظت (غادة) بعد عدة ساعات ، وحضرت ممرضة القسم لمنحها جرعة العلاج ، وتغيير زجاجة الجلوكوز المتصلة بذراعها ، فقالت لها (غادة) وهى تبتسم :

ــ إنك تبدين لطيفة للغاية .. أتعلمين ؟.. كنت أرهب الحقن دائمًا ، منذ طفولتى ، وعلى الرغم من ذلك فهأنذا أستجيب لك دون خوف أو رهبة .

بادلتها الممرضة الابتسام ، وهى تقول :

ــ يسعدنى أن ألقى منك هذا التقدير ، والواقع أننى أشعر بتقارب نحوك يتجاوز حدود العمل ، ربما لجمالك

ورفقتك .. وبالمناسبة .. اسمى (سناء) ، ولقد أوصانى بك الدكتور (نبيل) على نحو خاصّ .

هتفت (غادة) من أعماقها :

ـــ (نبيل) ؟ .. حقًّا ؟!

أدهش (سناء) أنها قد نطقت اسمه مجرَّدًا ، دون ألقاب .. فقالت :

ـــ إذن فأنتما متعارفان مُسبَقًا .. هذا يبرِّر اهتمامه الشديد بك .

قالت (غادة) فى اهتمام :

ـــ إنها معرفة قديمة .. وقويَّة .. أخبرينى ، منذ متى يعمل هنا ؟

أجابتها (سناء) :

ـــ إنه لا يعمل هنا ، فهو إخصائىّ فى أحد أكبر مستشفيات (لندن) ، حيث استقرَّ بصفة نهائية ، وهو هنا كطبيب زائر ، بناءً على طلب مدير المستشفى ، لعلاج بعض الحالات المستعصية ، وإجراء بعض العمليات الجراحية الدقيقة .

بدا الإحباط على وجه (غادة) ، وهى تقول :

ـــ أيعْنِى هذا أنه سيسافر مرَّة أخرى ؟

ـــ نعم .. خلال اليومين القادمين .. أتصدِّقين أن هذا الشاب الوسيم ، الذى لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره بعد ، يعدُّ واحدًا من أشهر المتخصصين فى جراحات القلب فى العالم ، وأن الهيئات الطبية الدولية تتنافس عليه .. إننا نفخر به حقًّا .

ثم عادت تسألها :

ـــ ولكن متى تعارفتما ؟

حدَّقت (غادة) فى سقف الحجرة ، وكأنها تستعيد ذكرى قديمة ، وقالت :

ـــ منذ سنوات عديدة .

ثم التفتت إلى الممرضة ، تسألها فى خجل :

ـــ ولكن لاريب أنه قد تزوَّج .. أليس كذلك ؟ .. إنها زوجة إنجليزية على الأرجح .

ضحكت الممرضة ، وقد أنبأتها غريزتها الأنثوية بغرض السؤال ، وقالت :

ـــ إن أحدًا لم يلق عليه هذا السؤال الشخصى ، ولكنك تعرفين أن أوَّل ما تتطلَّع إليه الفتيات ، بعد وسامة الرجل ،

هو أصابعه ، ليتأكَّدن من حقيقة موقفه الاجتماعىّ ، ولكن أصابعه كانت خالية من دبلتى الزواج والخطبة ، مما يؤكِّد أن إحداهن لم تُوقعه فى أسرها بعد .

شعرت (غادة) بالارتياح ، فعادت تسترخِى فوق وسادتها ، ووجهها يحمل ابتسامة هادئة ، جعلت (سناء) تسألها فى خبث :

ـ هل من أسئلة أخرى ؟

ـ لا .. شكرًا .

ـ حسنًا .. سأعود إليك بعد ساعتين ، فإذا ما احتجْتِ إلىَّ قبل ذلك ، فقط اضغطى ذلك الزِّرَّ الأحمر إلى جوارك .

ومنحتها ابتسامة مَوَدَّة ، وغادرت الحجرة ، وتركتها تسبح مع ذكريات حبها الأوَّل ..

مع (نبيل) ..

* * *

٥ ـ الحُلم الضائع ..

كانت تتساءل عمَّا إذا كان من اللائق أن تستعيد فى ذهنها ذكريات تلك الأيام السعيدة ، التى جمعتها مع (نبيل) ، بعد أن أصبحت مرتبطة بخطبة مع (عادل) ، ولكن ذلك الصمت المُطْبق ، الذى يحتويها داخل حجرتها المنفردة ، وعودة (نبيل) إلى حياتها بعد ست سنوات من الفراق ، وحديث الممرضة عنه ، كلها عوامل جعلتها تسبح ، على الرغم منها ، فى نهر الذكريات ، وتستسلم لتيَّاره بحُلوه ومُرِّه ..

لقد كان (نبيل) جارهم فى (العباسية) ، أيام كان والدها موظَّفًا بسيطًا بشركة النقل البحرىّ ، وكانت والدتها على قيد الحياة ، ولقد تعلَّقت به منذ طفولتها ؛ لما رأته فيه من شهامة ورجولة ، تميِّزه عن الآخرين .. ولقد صارحته هى بحبها ، عندما كانت طالبة فى الإعدادية ، وكان هو طالبًا فى السنة الثانية بكلية الطب ، ويومها سخر منها ، واتهمها بأنها ما تزال طفلة ، مما منحها ـ آنذاك ـ شعورًا بالمهانة والغضب ، والندم على

أنها قد صرَّحت له بحبها ، وزاد من غضبها أنه عندما شعر بخطئه ، حاول أن يسترضيها ببعض الحلوى والشيكولاتة ، فألقتها فى وجهه هاتفة فى عصبيَّة وغضب :

ـــ احتفظ بالحلوى لنفسك ، وكُفَّ عن معاملتى كطفلة ، والأفضل أن يكُفَّ كل منا عن رؤية الآخر ..

وكم ندمت على عبارتها هذه أشدّ الندم بعد ذلك ؛ إذ كان (نبيل) من ذلك النوع الشديد الاعتزاز بنفسه وكبريائه ، فتوقَّف من يومها عن زيارتهم ، وعن إعطائها دروس اللغة الإنجليزية ، التى كانت تتلهَّف على انتظارها ..

وعندما أصبحت فى المرحلة الثانوية ، تبدَّلت نظرة (نبيل) لها ، وأصبحت تلمح فى عينيه ، كلما التقيا ، مزيجًا من الإعجاب والحبّ ..

وربما كانت هذه العاطفة فى نفسه منذ البداية ، وإن عجز عن التعبير عنها لعدة اعتبارات ، منها ما يتميَّز به من شهامة ، منعته من خيانة ثقة أب سمح له بدخول بيته ، وإعطاء ابنته الدروس الخصوصية دون رقابة أو شكوك ، واعتبره ابنًا له ، مما جعل مجرَّد التعبير عن عواطفه خيانة لا تُغتفر ، فراح يطرد الفكرة من أعماقه ويحاربها ، ويحاول إقناع نفسه بأن (غادة)

مجرَّد طفلة ، وأن عاطفته نحوها لا تتجاوز العواطف الأخوية ..

ثم جاءت وفاة أمها ، التى كان صدمة هائلة لها ، كادت تسلِّمها إلى انهيار تام ..

وهنا كشف (نبيل) عن عواطفه تجاهها ، وأحاطها بكل حنانه ورعايته ، وعندما ألقت رأسها على كتفه باكية ذات يوم ، انسابت من بين شفتيه كلمات الحب والحنان ، وأفصح لسانه عن مكنون قلبه ، وعواطفه الجيَّاشة ..

ومع مرور الأيام ، راح حبهما يُعلن عن نفسه ، وينمو ، وينسج أحلامه الوردية عن المستقبل والنجاح ، فى ثوب طاهر نقى ، لم يحاولا إخفاءه عن أحد ، حتى أن والدها كان يعلمه ويباركه ، وعندما تقدَّم (نبيل) طالبًا يدها ، وجد ترحيبًا وقبولًا ، إلَّا أن الأب اكتفى بقراءة الفاتحة فحسب ، على أن يؤجِّل الإجراءات الأخرى إلى ما بعد تخرُّج (نبيل) فى كلية الطب ، والذى تبقى له عام واحد فحسب ..

ثم حدث ذلك التحوُّل فى حياة الأب ، الذى كان له التأثير الأعظم على تغيُّر مسار حبها ، فقد سافر الأب معارًا إلى أحد بلدان الخليج ، واصطحب معه ابنته (غادة) ، مع وعد

بإتمام إجراءات الخطبة والزواج فى أوّل إجازة ..

ولكن هذه الإجازة لم تأتِ أبدًا ..

لقد مرّت السنوات ، دون أن يعود الأب أو ابنته ، إلا أن رسائل (غادة) و (نبيل) كانت تحمل نفس العاطفة القويّة ، والإصرار على التمسُّك والحبّ ..

ولكن الرسائل المتبادلة بين (نبيل) والأب كانت تختلف ..

كانت مُبهمة ، باردة .. مبتورة ..

وتخرَّج (نبيل) فى كليته ، ومارس عمله كطبيب فى أحد المستشفيات العامة ، وحاول أن يهزم لوعة الفراق بالاستغراق فى العمل ، والانكباب على مزيد من الدراسة والتحصيل ، حتى صار محل تقدير وإعجاب أساتذته ، لتفوُّقه الملحوظ ، ومثابرته ..

وعاد الأب والابنة من الخارج ، ولكن فى ثوب جديد ، ورؤية مختلفة ..

وانتقلا من (العباسية) إلى شقة فاخرة بـ (الدقى) ، وترك الأب وظيفته ، ليعمل مع شريك فى الأعمال الحرَّة ، وانعكس هذا على طموحاته ، ونظرته إلى مستقبله ، ومستقبل

ابنته ، وراح يشير إلى ضرورة ارتباط ابنته بشاب ثرىّ ؛ ليكون ارتباطها بمثابة دفعة قوية لطموحاته ، ومصاهرة لشريك قوىّ متمرِّس ، ومضاعفة لتلك الثروة التى عاد بها من الخليج ..

وهكذا ، عندما توجَّه (نبيل) إلى الوالد ــ بعد عودته ــ فوجئ به يستقبله قائلًا :

ــ لست أنكر أنك كنت دَوْمًا محل تقديرى وإعجابى ، وعندما قرأت معك الفاتحة كنت أتصوَّر أنك الزوج المناسب لابنتى ، ولكن كل شىء يختلف مع مرور الوقت .. صحيح أن ثقتى فى رجولتك وشهامتك لم تتغيَّر ، وإعجابى وتقديرى لشخصيتك لم يتبدَّل ، ولكن هذا يدفعنى فقط للتحدُّث إليك فى صراحة ، مقدِّرًا قدرتك على تفهُّم الأمور ، والنظر إليها بنظرة واقعية ، فأنا لم أعد (عز الدين شوكت) ، الموظف البسيط بشركة النقل البحرىّ .. لقد بذلت الكثير من الجهد والعرق ؛ لاختيار حياة جديدة ، وتأمين مستقبل أفضل لى ، ولابنتى الوحيدة (غادة) ، وأنا أخوض الآن عالم الأعمال الحرَّة ، وأخطو فيه أُولى خطواتى ، وهو عالم قاس لا يرحم كما تعلم ، وينطوى على مخاطر شتَّى ، قد يحتملها آخرون ، ممن

تمرَّسوا على مثل هذا النوع من الحياة ، وجمعوا من الثروات مايمكِّنهم من مواجهة الصَّدمات المالية ، إلَّا أننى لست كذلك ، وأى خطإ صغير قد يطيح بكل ما جمعته من أجل ابنتى ؛ لذا فأنا أحتاج إلى رجل قوىّ ، يعضدنى فى هذا المجال ، ويكون لى أكثر من مجرَّد شريك .. بل صهر .. ولقد تأكَّدت من أن مستقبلى ومستقبل ابنتى فى إتمام هذه المصاهرة .

قال (نبيل) ، محاولًا إخفاء انفعاله :

ـ أيَعْنى هذا أنك تحلّ نفسك من ارتباطنا ؟

ـ كما قلت لك ، الأمور تتغيَّر ، وعلينا أن نتغيَّر معها ، وننظر إلى الأمور بنظرة واقعية ، ولو أنه كان من المناسب أن تتزوَّج ابنة (عز الدين شوكت) ، الموظف بشركة النقل البحرىّ ، من طبيب شاب حديث التخرُّج ، إلَّا أن ابنة (عز الدين شوكت) ، رجل الأعمال الطموح لا تناسبها هذه الزِّيجة .

قال (نبيل) فى سخرية تشوبها المرارة :

ـ وهل جعلت من ابنتك المشروع الأوَّل ، الذى تقتحم به عالم الأعمال ؟.. أأصبحت جزءًا من صفقاتك ؟

احتقن وجه الأب ، وهو يقول فى غضب :

ـ أظن الأمور واضحة بيننا الآن ، ولقد انتهت المقابلة .

ولكن (نبيل) لم يتحرَّك من مكانه ، وهو يسأله :

ـ أتوافق غادة على هذا الاختيار ؟

أجابه فى صرامة وثقة :

ـ إنها ابنتى ، وأنا أعرف صالحها ، ثم إن اختيارى هو اختيارها .

ولكن (غادة) اندفعت من حجرتها بغتة ، وهى تقول فى تصميم :

ـ لا يا أبى .. لن أرتبط سوى بـ (نبيل) ، الذى أعطيته كلمتك ، والذى ظلَّ وافيًا أمينًا على ارتباطنا ، والذى كان دَوْمًا موضع إعجابك وثقتك .

احتقن وجه الأب ، وهو ينهرها فى غضب ، قائلًا :

ـ كيف تتصرَّفين على هذا النحو ؟.. عودى إلى حجرتك .

ولكنها ظلت متشبثة بموقفها ، وهى تقول فى عناد :

ـ لو أنك لست مستعدًا للحفاظ على ارتباطك مع (نبيل) ، فأنا متمسكة به ، ومن حقِّى اختيار الرجل الذى أتزوَّجه .

فاجأها والدها بصفعة قويّة على وجهها ، وهو يقول فى حِدّة :

ــ قلت لك عُودى إلى حجرتك .

ولكن الصفعة لم تحطِّم عزيمتها ، وهى تقول من خلال دموعها :

ــ يمكنك أن تضربنى ، وأن تفعل بى ما يحلو لك ، ولكن ذلك لن يجعلنى أحيد عن اختيار الإنسان الذى أحبيته

همَّ الأب بصفعها مرَّة أخرى ، ولكن (نبيل) أمسك يده ، قائلًا فى هدوء :

ــ أطيعى أباك يا (غادة) ، وادخلى إلى حجرتك .

ثم التفت إلى الأب ، مستطردًا فى مرارة :

ــ لم أكن أتصوَّر أن النقود يمكنها أن تغيِّر البشر على هذا النحو .

وغادر المنزل ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ..

وبعد يومين من هذا الموقف ، ذهبت إلى (نبيل) فى المستشفى ، وقالت له :

ــ لن أتزوَّج سواك يا (نبيل) .. لن تقف أطماع أبى فى طريق أحلامنا وسعادتنا .

أجابها والمرارة لم تفارق صوته بعد :

ــ وما السبيل إلى ذلك ؟.. لقد اختلف والدك تمامًا ، وأصبح ينظر إلى كل الأمور من منظور شخصىّ مادّىّ ، ولم تعُد لغة العواطف والمشاعر تُجْدِى معه .

قالت فى عزم وتصميم :

ــ فلندافع إذن عن حبِّنا وحياتنا .

ــ ماذا تُعْنين ؟

ــ أما زلت ترغب فى الزواج منّى ؟

ــ أهذا سؤال ؟.. إنه حُلم حياتى بالطبع .

ــ فلنتزوَّج إذن .. الآن قبل الغد .

ــ أتَعْنين أن نتزوَّج ضد رغبته ؟

ــ إنه لم يمنحنا سوى هذا الاختيار .

ــ لا يا (غادة) .. هذا يتعارض مع أخلاق ومبادئ .

ــ إننا لا نرتكب ذنبًا ، عندما نتمسَّك بحقوقنا .

ــ لا يا (غادة) .. لست أوافق على ذلك ، على الرغم من اختلافى مع والدك ، فلقد نشأت أوَّل ما نشأت فى قرية ، وهناك تعلمنا أن الحق الشرعى لا يؤخذ غصبًا ، وإلا فإنه يفقد شرعيته ، ويصبح أشبه بالجريمة .

ــ ليس من حقك أن تصف شرعًا حلله الله بأنــه جريمة، فالوضعان يتعارضان إلّا إذا أردت أن تضحّيَ بحبنا وارتباطنا من أجل قِيَم بالية، ليس من المنطقيّ أن تحملها عقليته طبيب متفتح.

بدا التردُّد على ملامح (نبيل) ، وهو يقول :

ــ هناك نقطة أخرى، حجبتها عنا أحلامنا يا (غادة)، فالفارق شاسع حقًا بين الحُلم والواقع، ولم أتبيَّن ذلك إلا عندما تحدَّث والدك عنه .. فأنا ما زلت طبيبًا حديث التخرُّج، إمكاناتى محدودة فى أوَّل الطريق، لا تكفى لتوفير حياة كريمة لزوجتى، ثم إننى لست مستعدًّا للاعتماد على ثروة جلبها والدك.

تطلَّعت إليه مستنكرة ، وهى تقول :

ــ أنت شخص آخر ، بخلاف (نبيل) الذى عرفته ، والذى كان يمتلئ بالثقة، والإيمان بأن الحب يهزم كل العقبات .. لقــد ناقشنا تلك الأمور من قبل، ولم يهمنا الثراء .. كل ما ربطنا هو الحب، والحُلم بمسكن متواضع، ينمو مع الأيام و.....

قاطعها قائلًا :

ــ كنا نتصوَّر أن أحلامنا وعواطفنــا ستذلِّــل لنــا كل العقبات ، ولكن الواقع هو أنها ستتحطَّم على صخرة الواقــع..

فحتى هذا المنزل المتواضع لست أملك الإمكانات لتحقيقه ، على الرغم من أننى ألهث خلف عواطفى .. لقد كان والدك محقًا ، عندما قال إن كل شىء يتغيَّر مع الوقت ، حتى الأحلام .

قالت وملامحها تحمل خيبة الأمل :

ــ لم تعُد تختلف عنه كثيرًا .. كِلاكُما تخلَّى عن مشاعره بحجة الواقعية ، وإن اختلفت المبرِّرات ، فهى بالنسبة له القوَّة ، وبالنسبة لك الضعف .. كِلاكُما وجد حجة لعدم مواجهة ارتباطاته .

حاول أن يغمغم :

ــ لا تظلمينى يا (غادة) .. إنما أفعل هذا من أجلك .

هتفت فى ازدراء :

ــ كفَى .. أنت تعلم أنه من أجلك أنت .

ثم اندفعت مغادرة المكان ، وهو يهتف مناديًا إيَّاها ، دون أن تجيبه ، بل دون أن تلتفت لتلقى عليه نظرة واحدة ..

لقد شعرت لحظتها أنها قد فقدته ..

فقدته إلى الأبد ..

* * *

٦ ــ حصار الذكريات ..

وهاجر (نبيل) إلى (لندن) ، بعد أن اختار العلم والدراسة بديلًا عن عواطفه ومشاعره ، وقد رسخ لديه أنهما اختياران متعارضان تمامًا ، وأصبح طموحه أيضًا يختلف ..

أما (غادة) ، فقد رضخت لمشيئة والدها ، وقبلت خِطبة (سامى) ابن شريكه ، ولكن أربعة شهور فقط من الخِطبة كانت تكفى ، لتؤكِّد استحالة زواجها منه ، بعد أن ثبت لها ــ ولوالدها ــ أنه من أسوإ أنواع الرجال .. سكِّير .. مقامر .. أنانىّ .. لا يقيم وزنًا للمبادئ أو المشاعر ..

ولم يكن هناك بدٌّ من فسخ الخطبة ، خاصة وأن الأب لم يعُد يعتمد على شريكه ، بعد أن اكتسب بسرعة خبرته اللازمة للعمل ، وإن ظلَّ الحزن فى عيون ابنته يؤنب ضميره ، كلما تطلَّع إليها ، ورأى فيها نتاج مقامرة خاسرة ، وطموح فاشل ..

ولم تحاول هى معاتبته يومًا على ما فعل ؛ إذ كانت ترى أن (نبيل) يشاركه جزءًا من هذا الفشل ، وكذلك هى ، عندما

وافقت على الارتباط بشخص تبغضه ، ولا تحمل له فى نفسها سوى الاشمئزاز والاحتقار ..

ولكن الأب ظلَّ يعُدّ نفسه المسئول الأوَّل عن الأمر ، فبذل أقصى ما يستطيع ؛ لتحقيق كل ما تصبُو إليه ابنته ماديًّا ، وأقسم ألَّا يتدخَّل فى حياتها ، أو يفرض عليها أمرًا قطُّ ..

ثم ظهر (عادل) فى حياتها ..

كان والده ذلك المقاول الأشهر (جمال أبو الفتح) ، ولقد تعارف مع والدها فى النادى ، عندما دار بينهما عمل مصادفة ، وأعجب الأب بها منذ اللقاء الأوَّل ، وفاتح والدها برغبته فى تزويجها لابنه فى اللقاء الثانى ، وأخبره والدها أن الموافقة تعود إليها ، وأنه لا يستطيع اتخاذ قرار بشأن حياتها وحده ، فاتفق الوالدان على تدبير لقاء يجمع بينهـا وبين (عادل) ، ليتم تعارفهمـا ، على الرغـم من ميلها الدائم للوحدة ، وإلى قراءة الروايات الرومانسية ، وعدم اختلاطها بزملاء وزميلات النادى ، بحكم طبيعتها الهادئة الساكنة الحالمة ، التى اتخذت من الروايات الرومانسية وسيلة للتحليق فى عالم الخيال ، والسباحة فى نهر الأمل الوردىّ ..

وذات يوم فاجأها (عادل) بوسامته ، وشعره الكستنائى ، بعد أن عرَّفها والدها إيَّاه بيوم واحد ، وجذب مقعدًا ليجلس إلى جوارها ، وهو يحمل على شفتيه تلك الابتسامة الجذَّابة ، قائلًا :

ـــ أوَجَدت أمير أحلامك فى تلك الرواية ؟

غمغمت فى حرج :

ـــ ألديك موعد مع أبى ؟

أجابها فى بساطة :

ـــ لا .. الواقع أننى جئت لقضاء بعض الوقت فى النادى ، وعندما رأيتك وحدك ، فكَّرت فى أن نجلس معًا .. أيضايقك هذا ؟

بدا الضيق على وجهها بالفعل وهى تغمغم :

ـــ لست أجلس وحدى فى الحقيقة .. فهذه الرواية صديقتى ، وأكره أن يشغلنى أحد عنها .

اتسعت ابتسامته ، وقال دون أدنى حرج :

ـــ إننى أحسدها على صداقتك ، وأتمنَّى لو كنت رواية تنال اهتمامك وبعض إعجابك .

انفرجت أساريرها ، على الرغم منها ، وهى تقول :

ـــ أستاذ (عادل) .. إنك تثير دهشتى ، فمن يراك صامتًا طيلة الوقت أمس ، لا يتصوَّر حديثك المنمَّق اليوم !!.. أكان هذا بسبب والدك ؟

أجابها فى مرح :

ـــ ربَّما .. ولكنه لم يمنعنى من أن أختلس النظر إليك ، ولقد كانت تلك النظرات المختلسة كافية لانجذابى إليك ، ولحضورى اليوم مصطنعًا أُكذوبة كبيرة ، لقضاء بعض الوقت معك فى النادى ، ولكن لو أن هذا يسبِّب لك الضيق .. ولو أنك تجديننى رفيقًا ثقيل الظل ، فلن يَسَعَنِى سوى الانسحاب ، وتركك برفقة روايتك .

قالها وهمَّ بالنهوض ، مورثًا إيَّاها شعورًا بالحرج ، وانبهارًا بلباقته ، مما جعلها تعتذر قائلة :

ـــ لم أقصد هذا قطعًا ، ولكننا تعارفنا أمس فقط وهأنتذا اليوم ...

عاد يجلس فى سرعة ، قائلًا بنفس المرح :

ـــ إذن فهناك مكان لى .. شكرًا لك ؛ لأنك لم تحرمينى الفرصة .

تأملته لحظة فى دهشة ، ثم لم تلبث أن أطلقت ضحكة مرحة ، وهى تقول :

ـــ أنت إنسان غريب حقًّا .

تناول الكتاب من يدها ، قائلًا :

ـــ أتسمحين لى ؟

وألقى نظرة على عنوانه ، قبل أن يستطرد فى مزيج من الدهشة والسخرية :

ـــ (غادة الكاميليا) ؟!.. إنها رواية كلاسيكية ، عفا عليها الدهر !!

أجابته فى ضيق :

ـــ ولكنها خالدة ، تصلح لكل الأزمنة .

ـــ أتصدّقين ما ورد فيها عن التضحية والوفاء وإنكار الذات ؟.. إن تلك القيم النبيلة لم تَعُد تتفق مع العصر الذى نحياه .

ـــ ليست المشكلة فى العصر ، وإنما فينا نحن ، فكلما طغت المادّيّة على مبادئنا وأفكارنا ، مع مزيج من حبّ الذات والأنانية والانتهازية ، بدت لنا تلك القيم النبيلة غير مواكبة للعصر ،

أما لو سمت نفوسنا ، وتمسّكنا بالمبادئ الإنسانية الصحيحة ، فستبدو لنا تلك القيم هى الحياة .

رمقها بنظرة إعجاب ، امتدّت برهة من الوقت ، قبل أن يقول :

ـــ قد لا أتفق مع أفكارك ، ولكننى لا أملك سوى الإعجاب بها وبك .

أطرقت فى حياء ، دون أن تنبس ببنتِ شَفَة ، فاستطرد :

ـــ وتعبيرًا عن إعجابى ، أهدى إليك مجموعة أحتفظ بها ، من الرومانسيات القديمة .

رفعت عينيها إليه ، تسأله فى دهشة :

ـــ أتحتفظ فى مكتبتك بروايات رومانسية ؟

أجابها وعيناه تحملان تعبيرًا حزينًا ، وصوته يشفُّ عن حنين جارف :

ـــ إنها تخصّ أمّى (رحمها الله) ، فقد كانت تهوَى قراءتها .

ثم استطرد مبتسمًا :

ـــ وأراهن أنها كانت ستعجب بك أيضًا ، لو أنها على قيد الحياة ، فأنت تذكريننى بها .

مسّت عبارته ، بكل ما يسرى فيها من حزن ، شغاف قلبها ، وذكّرتها بأمها ، التى فقدتها فى سنّ مبكّرة ، وبكل ما كانت تمنحها إيّاه من عطف وحبّ وحنان ، وجمعت تلك المشاعر بينها وبين (عادل) ، وقرّبت بينهما فى شدة ، وإن لم تبلغ بهما شاطئ الحب طويلًا ، على الرغم من كون (عادل) شابًا وسيمًا مثقفًا ، ميسور الحال ، مهذّبًا رقيقًا ، يتمتع بكل الصفات التى تميل إليها الفتيات ، فيما عدا ضعف شخصيته ، وانقياديته الشديدة لأبيه ، وتشبّعه بأفكاره ، ورضوخه لكل ما يخطّطه له ..

حتى اختياره لـ (غادة) ، تمّ — كما عرفت فيما بعد — بناءً على ترشيح والده ، وطبيعته كمقاول ، وقوله الشهير : « البناية التى تُرسم على الأوراق تتمزّق معها ، أما التى تنقل إلى الواقع فوق أساسات متينة ، فإنها تبقى دهرًا ، وتتحدّى الزمن » .

وفى كل تعاملاته ، كان يبحث عن هذا الأساس المتين ..

المال .. والمركز الاجتماعى ، والمركز العلمى ..

وعلى الرغم من تعارض ذلك المبدإ مع طبيعة (غادة) ، إلّا أنها وافقت على الارتباط بـ (عادل) ، عندما تقدّم

لخطبتها ، على أمل فى أن يتطوّر التقارُب بينهما ، مع تلك اللمسة الإنسانية فى شخصيته ، فيزول تأثير والده عنه ..

ومع مرور الزمن ساعدت شخصية (عادل) الرقيقة على حدوث التقارب بينه وبين (غادة) ، إلّا أن تأثير والده عليه لم يقلّ ، بل ظلّ قويًّا ، يُحدث فجوة بينهما ، حتى اقتنعت هى بأن التغيير الذى تنشده سيحتاج إلى المزيد من الوقت والصبر ، وإن ظلّ هناك سؤالٌ يؤرّقها دَوْمًا ، دون أن تجد له جوابًا ..

هل هى تحبّ (عادل) حقًّا ؟!..

ومع تأثير المهدئ القوىّ ، توقّف نهر الذكريات عن الجريان فى عقلها ، وراح جسدها الواهن يسترخى ، قبل أن تغوص فى بئر النوم العميقة ، وعقلها يرسم صورتين متداخلتين ..

صورتى (عادل) و (نبيل) .. والحَيْرة ..

* * *

٧ ـ الطبيب والحبيب ..

كان الصباح يُرسل تباشيره الأولى ، عندما وقف (نبيل) إلى جوار فراش (غادة) ، يتأمّلها فى صمت وهى نائمة ، وأنفاسها تتردَّد فى هدوء وانتظام ، ودون صعوبة كالسابق ، فى حين غرقت الحجرة فى صمت عميق ، ولم يشعر بدخول الدكتور (منير) إليها ، حتى سمعه يهمس فى أذنه :

ـ إنك لم تحصل على قدر وافر من النوم أمس يا دكتور (نبيل) ، فلقد أخذت حالاتك كل ليلتك تقريبًا ، وخصوصًا هذه الحالة .

وابتسم مستطردًا :

ـ يبدو أنهم يحاولون استنزاف أكبر قدر ممكن منك ، قبل رحيلك إلى (لندن) .

لم يبادله (نبيل) الحديث ، بل ظلّت عيناه مسلّطتين على وجه (غادة) ، فعاد (منير) يهمس :

ـ اسمع .. لقد أنهيت عملى ، ما رأيك لو تذهب لتنال قسطًا من الراحة فى حجرتى ، ريثما أتابع هذه الحالة ؟.. لقد كانت مريضتى فى البداية .

أجابه (نبيل) فى خفوت ، ودون أن يرفع عينيه عن وجه (غادة) :

ـ إنها ليست مجرَّد مريضة يا دكتور (منير) .. لقد كادت تصبح زوجتى يومًا .

هتف (منير) فى دهشة :

ـ هذا هو سرّ اهتمامك بها إذن !

أجابه (نبيل) فى هدوء :

ـ يمكنك أن تستفيد من وقتك ، فسأتابع هذه الحالة بنفسى .

ربَّت (منير) على كتفه ، قائلًا :

ـ إننى أقدِّر ذلك .. عمومًا لو احتجت إلىَّ فستجدنى فى الدَّور العلوىّ .

وغادر الحجرة فى هدوء ، تاركًا (نبيل) وسط عواطفه الجيّاشة ، يُنعم النظر فى وجه (غادة) ، حتى حضرت الممرضة ، وهمست بدورها :

ـ عفوًا يا دكتور (نبيل) .. إنه موعد حقنتها .

قال فى حنان ، وكأنما يُشفق على (غادة) من حرمانها النوم ، الذى يضفى عليها جمالًا ملائكيًا :

ـ فلنمنحها نصف ساعة أخرى من النوم ..

ـ ولكن موعد الحقنة .....

ـ لن يضيرها أن تنتظر نصف ساعة أخرى ، فالراحة لها التأثير الأعظم على تحسُّن حالتها .

ولكن (غادة) استيقظت على صوت الحديث الهامس بينهما ، وفتحت عينيها فى بطء ، ولم تكد تلمح (نبيل) إلى جوار فراشها ، حتى انفرجت أساريرها عن ابتسامة تلقائية ، وهى تهتف فى ضعف :

ـ (نبيل) ؟!

ثم بدا لها أن مخاطبته باسمه مجرَّدًا لا يليق ، وخاصَّة فى حضور الممرِّضة ، فأسرعت تستدرك :

ـ عفوًا .. أقصد يا دكتور (نبيل) .

لم يبد أيَّة ملاحظة بخصوص اعتذارها ، بل تناول معصمها ، وراح يعدّ نبضها فى بساطة ، وهو يقول فى لهجة من يؤدِّى عملًا روتينيًا :

ـ أتشعرين بتحسُّن الآن ؟

أجابته وقد خيَّب برودُه أملها :

ـ نعم ..

تناول الحقنة من الممرضة ، قائلًا :

ـ يمكنك الانصراف .. سأحقنها أنا .

انصرفت الممرضة على الأثر ، فى حين راح هو يعدّ الحقنة ، قائلًا :

ـ أرجو ألا تكونى من ذلك النوع من الفتيات ، اللَّاتى يرهبن الحقن .

أجابته فى هدوء :

ـ لن أخشى شيئًا تقدمه لى بنفسك ، فأنا أمنحك كل ثقتى واطمئنانى .

حرَّكت عبارتها مشاعره ، فعاد يتطلَّع إليها قليلًا ، قبل أن يشمِّر عن ساعدها ، ويحقنها قائلًا :

ـ هل آلمتك ؟

أجابته مبتسمة :

ـ مطلقًا .

قال وهو يمسح أثر الحقن :

ـ إنك تستحقين الشكر ؛ لأنك مريضة مطيعة ملتزمة .
وصمت برهة ، قبل أن يستطرد :
ـ لقد سمعت أنك مخطوبة .. لماذا لم يأتِ خطيبك لرؤيتك والاطمئنان عليك ؟
أجابته فى ضيق :
ـ إنه فى (باريس) .. يعدّ رسالة دكتوراه .
هزَّ رأسه ، قائلًا فى جمود :
ـ عظيم .. يبدو أنك ستقترنين بشخصية مرموقة .
تأمّلته لحظة ، ثم قالت فى صوت يحمل رنّة عتاب :
ـ أنت أيضًا أصبحت شخصيَّة مرموقة ، ويبدو أنك قد حقَّقت ما كنت تصبو إليه من طموح علميّ ، وصرت علَمًا يشار إليه بالبَنان .
ـ نعم .. لقد أثمرت سنوات الدراسة والعذاب فى (لندن) ، وأصبحت اليوم رئيس قسم جراحات القلب فى مستشفى (هيثرو) ، ولكن ذلك لم يُنسنى وطنى وأبناءه ، فلبيت النداء فور استدعائى ، للإشراف على علاج بعض الحالات المستعصية .
تطلَّعت إلى أصابعه ، قائلة :

ـ توقَّعت أن تعود بزوجة إنجليزية .
قال فى صوت يحمل نبرة خاصَّة :
ـ إنسانة واحدة فقط ، فى العالم أجمع ، ملكت قلبى وعقلى ، بعد الطب والجراحة .
أخرجتها عبارته من تحفُّظها ، فقالت :
ـ لا تحاول إقناعى بأنه لم تكن هناك أخرى فى حياتك ، طِيلة السنوات الماضية .
ابتسم وهو يستعيد الألفة بينهما ، وخرج عن جموده ، قائلًا :
ـ لم يكن فى حياتى سواك .. أُقسم لك .
ارتفعت عيناها إلى وجهه ، وشعرت وكأن يدًا قويَّة قد تسلَّلت إلى أعماقها ، لتهزّ المشاعر الساكنة فيها ، والتى تصوَّرت أنها قد وأدتها تمامًا ، ومن الغريب أن الشىء نفسه قد حدث مع (نبيل) ، إلّا أنه استعاد سيطرته على نفسه فى سرعة ، وشعر بأنه قد تجاوز واجبه كطبيب ، وحقه كرجل تجاه فتاة مخطوبة لغيره ، فعاد ينفض عن نفسه مشاعره وعواطفه ، ويستعيد دَوْرَه كطبيب ، وهو يستطرد :

ــ عمومًا .. إن حالتك تتحسَّن ، ولكنك ستظلين تحت الملاحظة لبعض أيام أخرى ، حتى نتأكَّد من أن الأزمة لن تعاودك .. أمَّا أنا فمرتبط بالعودة إلى (لندن) ، خلال اليومين القادمين ، وسيتابع الدكتور (منير) تطورات حالتك بعد سفرى .. إنه طبيب متفوِّق ، وأنا أثق فيه ، كما سيطلعنى على تطورات حالتك هاتفيًا بصورة يوميَّة ، ولقد وعدنى بذلك و .....

قاطعته فى حزن :

ــ ستسافر وتتركنى ؟!

حاول أن يحتفظ بابتسامته ، وهو يقول :

ــ هناك حالات أخرى تنتظرنى فى (لندن) .

شعرت بغصَّة فى قلبها ، وهى تقول :

ــ آه .. نعم بلا شكّ .. إننى أقدِّر ذلك .

دلف والدها إلى الحجرة فى هذه اللحظة ، وحاول أن يملأ صوته بالمرح ، وهو يقول :

ــ صباح الخير يا دكتور .. صباح الخير يا (غادة) .

أجابته بصوت يحمل شيئًا من حزنها .

ــ صباح الخير يا أبى .

ــ كيف حالك اليوم يا بنيَّتى ؟

ــ فى خير حال يا أبى .. هكذا يقول الدكتور (نبيل) .

تطلَّع الأب إلى (نبيل) بعينين ملؤهما الرَّجاء ، وهو يقول :

ــ أحقًّا يا دكتور ؟

أجابه (نبيل) مطمئنًا :

ــ لقد مرَّت الأزمة بسلام ، ولكنها ستبقى تحت الملاحظة هنا بعض الوقت .

وزَّع الأب نظراته القلقة بين (نبيل) وابنته ، التى ترنُو إليه بعينين حزينتين ، وأدرك بغريزته أن هذا الحزن الكامن يعود إلى عاطفتها القديمة ، فقال وقد أقلقه أن تتحرَّك تلك العاطفة من جديد ، فى ظل ظروف ابنته المرضية ، وما يمكن أن يعكسه عليها ذلك من اضطرابات ومتاعب نفسية قد لا تحتملها ، فقال متردِّدًا :

ــ ألا يمكننى أن أنقلها إلى مستشفى الدكتور (صادق) الخاص ؟.. إنه صديق لنا ، وأعتقد أنها ستلقى عناية أفضل هناك .

عارضه (نبيل) قائلًا :

ــ إن أدنى مجهود تبذله الآن سيكون له تأثير سيِّئ على

حالتها الصحية ، وعلى الرغم من ثقتى فى كفاءة الدكتور (صادق) ، إلا أننى أعتقد أنها لن تلقى هناك عناية أفضل مما يمكن توفيرها لها هنا .. اطمئن يا عمَّاه .. ابنتك فى أيد أمينة .. وسأترككما الآن ، على ألا ترهقها بالحديث طويلًا ..

وانصرف بعد أن أغلق باب الحجرة خلفه ، واتجه إلى حجرته منهوك القوى ، بعد يوم عمل شاقّ ، وتمدَّد فوق إحدى الأرائك ، وراحَ يتطلَّع إلى سقف الحجرة ، ويُطلق العِنَان لذكرياته ، التى امتدَّت أمامه كشريط طويل ، عاد به إلى تلك السنوات ، التى عرف فيها (غادة) ، وهى بعد طفلة صغيرة ..

تذكَّر كيف نشأت قصة الحب بينهما ، وكيف انتهت بفشل عاطفىّ ، كان بمثابة نقطة تحوُّل فى حياته ، ووداع أخير لكل عواطفه ومشاعره ..

وعندما حملته الطائرة إلى (لندن) ، كان يترك خلفه كل ما يمكن أن يؤثِّر على حياته القادمة من عواطف ، وأبدل ذلك بحبه وإخلاصه لمهنته ، وجعل المنهاج العلمىّ هو المسيطر الوحيد على نظرته لكل الأمور ، ومقياسه الأوحد لمجابهة الحياة والتعامل معها ..

حتى الدين لم يعُد له مكان واضح فى نفسه ..

لقد صار واحدًا من أشهر جرَّاحى القلب فى العالم ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد صار بلا قلب ..

وعندما عاد بعد ذلك إلى موطنه ، وقادته الملابسات والمصادفة إلى لقاء حبه القديم ، قرَّر منذ أوَّل لحظة أن يعاملها كمريضة من مرضاه ، من الناحيتين العملية والإنسانية ، إلَّا أن تلك المشاعر ، التى راحت تتسلَّل إليه بين حين وآخر ، والتى راح يحاربها فى عنف ، كانت تملؤه شعورًا بالخوف والقلق ، بعد أن صار الحبّ فى نظره نوعًا من الضعف ، يتعارض مع النجاح والتفوُّق ..

كانت هذه هى نظريته الخاصَّة ، التى عزت نجاحه إلى كونه رجلًا بلا قلب ، وإلى إيمانه بأنه ، وعلى الرغم من كَوْنِ الطب مهنة إنسانية ، من الضرورىّ أن يثق فى أن إنقاذه لحياة مريض ما ، أمر يتوقَّف على براعته كطبيب ، وخبرته فى مواجهة الأمر ، واستخدام كل الإمكانات العلمية والتقنية لديه ، وليس على تعاطفه مع المريض ، أو إنسانيته معه ..

وبهذا المنهج نجح فى أن يقاوم مشاعره نحو (غادة) حتى

الآن ، وإن أقلقته تلك المشاعر التى تتسلّل إليه من حين إلى آخر ، والتى تتجاوز ما ينبغى أن يشعر به نحوها كطبيب ..

وهزَّ رأسه فى قوّة ، محاولًا منع نفسه من الاسترسال فى عواطفه نحوها ، ومنع شريط الذكريات من الاسترسال فى ذهنه .. فحتَّى لو قرَّر استعادة عاطفته الجديدة ، ولو تخلَّى عن قلبه الجامد ، ولو اهتزَّت كل مفاهيمه الجديدة ، فلن يغيِّر ذلك من الأمر شيئًا ، لأن قصة حبهما قد انتهت ، ولأن (غادة) مخطوبة الآن لشخص آخر ..

ثم كيف يفكِّر فى الارتباط بها ، وهو يراها كطبيب تواجه نوعًا من الموت البطىء ، بقلب مريض متهالك ؟..

كيف يبيح لنفسه استعادة ذكرياتهما معًا ، فى الوقت الذى ينبغى أن يكثِّف فيه كل جهوده للتعامل معها كمريضة ، والبحث عن أسلوب وعلاج فعَّال لأزمتها ؟..

ونهض من الأريكة يتطلَّع إلى وجهه فى المرآة متعجبًا ..

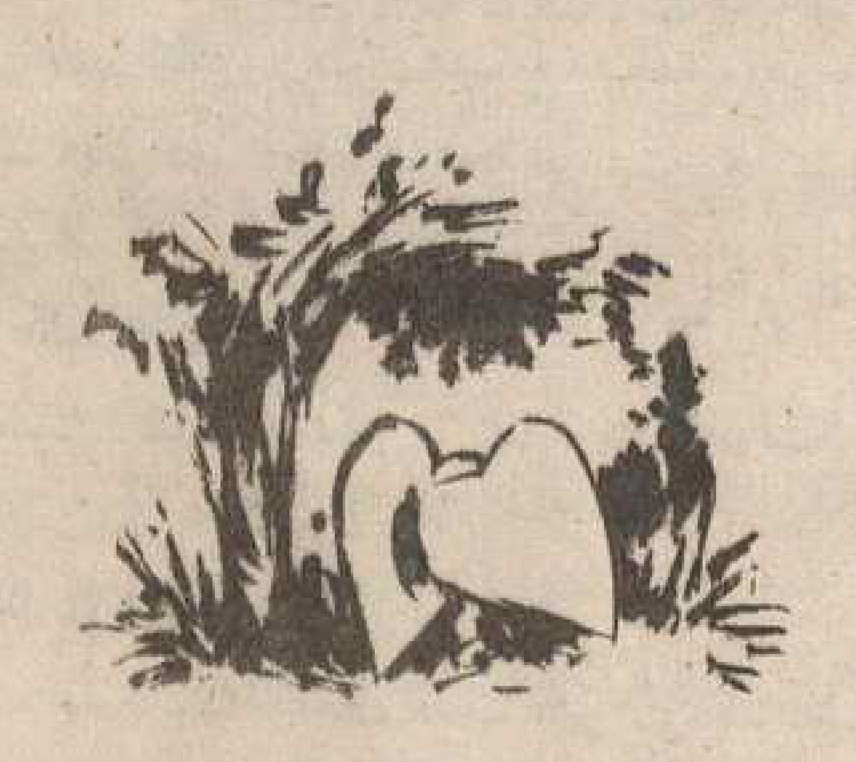
هاهى ذى كل الأمور تتداخل مرَّة أخرى ..

هاهو ذا المحب يمتزج مع الطبيب ، ويتعاطف مع المريضة ، ويرفض الاستسلام للمنطق العلمىّ ، باحثًا عن معجزة يُنقذ بها مريضته ..

نعم .. هذا ما كانت تحتاج إليه (غادة) ، بقلبها المريض المتهالك ..

كانت تحتاج إلى معجزة ..

* * *



٨ ــ الاختيار الصعب ..

خضعت (غادة) للعديد من الفحوص الطبيّـــة هذا الصباح ، والتفَّ عدد من الأطباء والممرضات حول فراشها ، لعمل كشف دقيق على قلبها ومخها .. ولم تكد فحوصهم تنتهى ، حتى ابتسم الدكتور (منير) ابتسامة مشجِّعة ، وهو يقول :

ــ هاهى ذى الفحوص المزعجة قد انتهت ، هل سبَّبنا لك الضيِّق ؟

أجابته بابتسامة باهتة :

ــ لا .. لقد بذلتم الكثير من أجلى ، ويجب أن أشكر لكم ذلك .

قال فى هدوء :

ــ لقد تحسَّنت وظائف القلب كثيرًا ، ويمكننا الاستغناء عن الجلوكوز تمامًا ، وإبداله بوجبات خفيفة ، وأظن ذلك سيسرّ الدكتور (نبيل) كثيرًا .

ودخل (نبيل) هذه اللحظة ، وهو يقول فى مرح :

ــ تُرَى أيَّة وشاية تلقيها فى أذنى مريضتى ؟

اتسعت ابتسامة (منير) ، وهو يقول :

ــ كنت أخبرها بأنك ستُسَرُّ بنتائج فحوص اليوم .

وناوله كل الفحوص التى أجريت ، وهو يشير إلى زملائه بالانصراف ، قائلًا :

ــ سأتركك لتقدِّم لها التهنئة بنفسك .

راجع (نبيل) نتائج الفحوص فى اهتمام ، فى حين راحت (غادة) تختلس النظر إليه ، وقد أتاح لها انشغاله فرصة تأمُّل قسماته ، التى غابت عنها طويلًا ، دون أن تخشى ذلك الشعور بالحَرَج ، الذى ينتابها كلما التقت نظراتهما ..

إنه لم يتغيَّر كثيرًا ، وإن بدا وجهه أكبر من عمره الحقيقى ، وهو يحمل علامات إجهاد كثيرة ، لم تُنقص من وسامته ورجولته ، وتلك النظرة العميقة فى عينيه ..

كم أحبَّت هذا الوجه ، وهاتين العينين ..

الآن فقط أدركت أن ملامحه لم تفارق خيالها ، طِيلة السنوات الست الماضية ، وإن حاولت إقناع نفسها بالعكس ..

وأغمضت عينيها ، وهى تحاول منع نفسها من الاستغراق فى التفكير فيه ، والاستسلام لجاذبيته المحبَّبة ، وقد راح ضميرها يؤنبها فى شدة ، ويعاتبها على منحها تلك المشاعر لـ(نبيل) ، وهى مخطوبة لآخر ..

لقد شعرت أن التفكير ، مجرَّد التفكير ، خطأ ، يحمل طابع الخيانة ..

نفضت عنها تلك الأفكار ، عندما سمعت (نبيل) يقول :

ـ هذه النتائج تنبئ بالخير ، وسيمكنك مغادرة المستشفى قريبًا .

سألته فى لهفة :

ـ ألن تعاودنى الأزمة مرَّة أخرى ؟

أطرق بوجهه عاجزًا عن توضيح الحقيقة لها ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ اسمعى يا (غادة) .. سأكون صريحًا معك .. إنك تُعانين من نقص شديد فى ضخ الدم إلى الجسم ، فهناك صمام تالف فى القلب ، وآخر لا يعمل بكفاءة تامة ، وهذا يَعْنى أنه مع اتباع نظام علاجى وغذائى خاص ، والبعد عن الانفعالات النفسية ، سيمكننا مستقبلًا تفادى حدوث الجلطات القلبية ،

وهو ما كان يهدِّد حياتك فى الآونة الأخيرة ، ولكننا لن نتخلَّص من خطرها تمامًا ، ما دام القلب لا يعمل بكفاءته العادِيَّة .

تنهَّدت فى يأس .. قائلة :

ـ إذن فما زلت أسيرة ذلك المرض اللعين .

ثم سألته بغتة فى اهتمام :

ـ ألا يجدى إجراء جراحة للتخلُّص من ذلك ؟

ـ احتمالات النجاح ، فى مثل هذه العمليات ، لا تتجاوز الخمسة فى المائة ، خاصة مع وجود صمام تالف فى القلب .

ـ سأقبل المخاطرة ، لو وافقت أنت على إجراء العملية بنفسك .

انتفض كما لو أنه قد أصيب بصاعقة كهربائية ، وهتف :

ـ أنا ؟!.. مستحيل !

ـ لماذا ؟.. إننى أثق فى براعتك ، ولن أطمئن على نفسى مع سواك .

ـ لا يا (غادة) .. لا يمكننى هذا .

ـ لماذا ؟.. لأننى (غادة) ؟!.. أما زلت تحمل بعض العاطفة نحوى ؟

لاذ بالصمت تمامًا ، وتركها تستطرد فى سعادة :

ـ حتى ولو كان هذا حقيقيًا ، حاول أن تتناسى تلك العاطفة ، وأن تتعامل معى كمريضة تفضل الموت ، على السجن المؤبَّد خلف أسوار المرض اللعين ، الذى يعذِّبها ويهدِّد حياتها فى كل لحظة ، وربَّما تنجح حينذاك .

قاطعها فى حزم :

ـ لا .. لن أسمح بإجراء تلك العملية الجراحية ، ولا صلة لهذا بالنواحى العاطفية ، بل هو أمر عملىّ وعلمىّ بحت ، ففرص النجاح هنا لا تقارن بضخامة نسبة الفشل واحتمالاته ، فى حين يمكننا السيطرة على الحالة طبيًّا ، كما يحدث مع الكثيرين .

قالت فى حِدَّة :

ـ أى آخرين ؟! .. إننى لن أحيا حياة طبيعية أبدًا هكذا .. سيصبح حتى مجرَّد صعود السُّلَّم أو هبوطه مخاطرة غير مأمونة العواقب .. سأضحك بحساب ، وأحزن بحساب ، وأعيش عمرى كله مهدَّدة بأزمة قاتلة ، قد تنتابنى فى المنزل أو الطريق كما حدث ، ثم إننى بشر ، لا يمكننى أن أستبعد انفعالاتى إلى الأبد .. ربَّما تكون هذه العملية خطيرة كما تقول ، وقد أموت بسببها ، ولكن البديل هو أن أموت فعليًا فى كل لحظة .

خشى عليها من الانفعال ، فقال مهدِّئًا :

ـ حسنًا .. حسنًا .. اهدئى ، وامنحينى بعض الوقت للتفكير .

هدأت نبراتها قليلًا ، وإن استمرَّت تقول فى حزم وتصميم :

ـ أريد مواجهة صريحة مع هذا المرض يا (نبيل) .. أريد منك أن تُجرِىَ لى تلك الجراحة قبل سفرك ، فإذا رفضت فسأطلب من الدكتور (صادق) أو (منير) إجراءها ، بعد أن أتعهَّد بتحمل النتائج والمخاطر ، وإن كنت أصارحك بأننى لن أثِقَ فى الأمر تمامًا ، ما لم تُجْرِ العملية بنفسك .

ـ حسنًا .. سأعطيك ردِّى فى المساء .

غادر حجرتها متجهًا إلى استراحة الأطباء ، وهو شارد الذهن تمامًا ، بسبب ذلك الاختيار العسير ، الذى وضعته فيه (غادة) ، وشعر لأوَّل مرَّة بخوف حقيقىّ ، وبعدم ثقته فى إجراء مثل تلك العملية لـ(غادة) ، على الرغم من أنه قد أجرى بعض العمليات المماثلة فى نجاح .. بل إنها فى الواقع سرّ شهرته ، إلَّا أن نجاحه فيها كان يعود إلى أعصابه الباردة ، ولامبالاته بما سيأتى به القدر ، أما بالنسبة لها ، فهو يرتجف

بمجرَّد الفكرة ، ويدرك تمامًا أنه سيعجز عن السيطرة على أعصابه معها ..

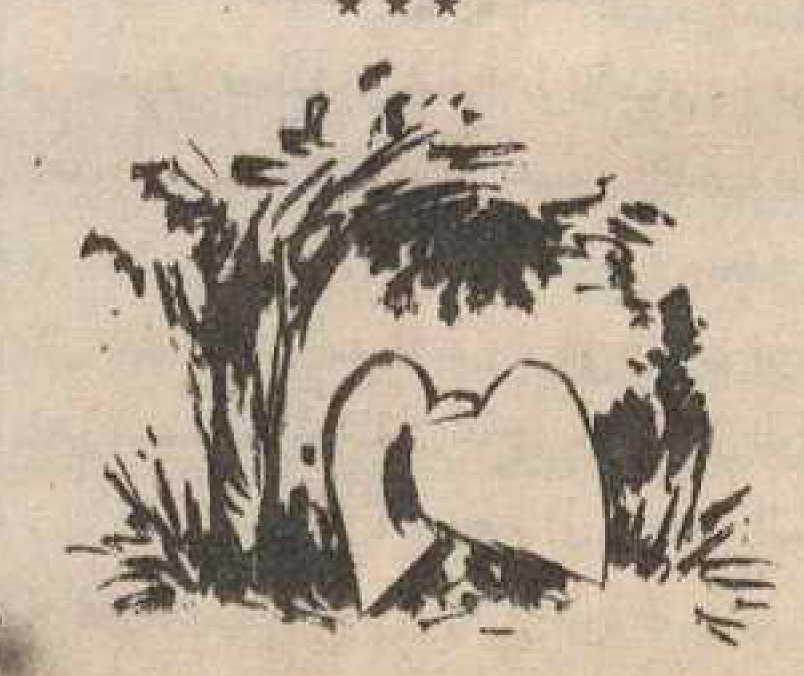
ولن يحتمل الفشل ..

إن (غادة) جزء غال فى حياته .. إنها حبُّه الوحيد ، الذى لن يعرف سواه ، وإذا ما فشلت العملية ، ولقيت مصرعها على يديه ، فستكون هذه نهايته كجرَّاح ، ولن يغفر هذا لنفسه أبدًا ..

وفى أعماقه راح يهتف فى إصرار :

ـ لا لن أسمح بإجراء مثل هذه العملية لها .. لن أقامر على حياتها أبدًا .. أبدًا ..

* * *



٩ ـ صَدْمة جديدة ..

دلفت الممرضة (سناء) إلى حجرة (غادة) ، وهى تحمل على وجهها ابتسامة خبيثة ، ولوَّحت لها بخطاب وردىّ ، قائلة :

ـ جاءك خطاب معطَّر من (باريس) .

اختطفت (غادة) الخطاب من يدها فى لهفة ، وهى تقول :

ـ لا ريب أنه من (عادل) .

عادت الممرضة تختطف الخطاب ، قائلة :

ـ ليس بمثل هذه السهولة .. أريد مكافأتى أوَّلًا .

مدَّت (غادة) يدها إليها فى شوق ، وهى تقول :

ـ سأمنحك المكافأة التى تريدينها .. ولكن أعطِنى الخطاب .

ناولتها (سناء) الخطاب ، وهى تبتسم قائلة :

ـ تكفينى تلك السعادة المطلَّة من عينيك ، سأتركك تقرئين الخطاب وحدك ، على أن تخبرينى بما به من حبّ وهيام فيما بعد .

وغادرت الحجرة ، تاركة الخطاب بين يدَىْ (غادة) ، تقلّبه بينهما دون أن تفضّه ..

كانت تسأل نفسها : لماذا لم يحضر بنفسه للاطمئنان عليها ؟..

وجدت نفسها تجيب : يا لها من حماقة ! .. لا ينبغى أن يعود بالطبع ، فلا ريب أنه مشغول بدراسته ، ولن يقطعها ويهرع إليها على أوّل طائرة ، ويكفى أنه أجاب برقية والدها بهذه السرعة ..

ولكن هل يتمسّك بها فعلًا ، بعد أن علم بحقيقة مرضها وظروفه ؟ أم خضع لإرادة والده كالمعتاد ؟..

تردّدت فى فضّ المظروف ، وهى تستعيد تلك العبارة ، التى سمعته فى الشُرفة يجيب بها والده ، مؤكّدا بأنه يحبّها ، ولن يتخلّى عنها أبدًا ..

وخشيت أن تفضّ الخطاب ..

خشيت أن يصدمها ما جاء فيه ..

صحيح أن تخلّى (عادل) عنها لن يفعل بها أكثر مما فعله فراقها عن (نبيل) ، ولكنها فى هذه المرّة قد تفقد ثقتها بنفسها

تمامًا ، وستعتبر هذا الرفض بمثابة حكم بأنها لم تعُد فتاة طبيعية ، لها حقّ الحب والزواج ، وأن مرض قلبها لن يصبح عذابها الوحيد ..

وبأصابع مرتعشة ، فضّت الخطاب ، وراحت تقرؤه وجسدها يرتعد انفعالًا ..

« عزيزتى غادة ..

آلمتنى بشدة تلك البرقية ، التى وصلتنى من القاهرة ، تبلغنى بتطوُّر حالتك ، ونقلك إلى المستشفى ، وكم وَدِدْت أن أحضر لزيارتك ، لولا ظروفى الدراسية فى (باريس) ، وأرجو ــ عندما تصلك رسالتى ــ أن تكون أزمتك قد مرّت فى سلام ، كما أرجو أن أطمئن دوْمًا على صحتك ..

(غادة) .. لست أدرى كيف أبدأ الحديث معك هذه المرّة ، ولكننى أثِق فى حسن تقديرك ، وفى أننى لم أدّع أمامك يومًا أننى عاطفىّ أو مثالِىّ ، بل كنت أصارحك دوْمًا بأننى شخص عملىّ تمامًا ، وربّما كان أحد أسباب اختيارى لك هو ما كنت تمثلينه لى من عاطفة أفتقدها فى نفسى ، وأذكرها عن أمّى الراحلة ، وربما كان هذا أيضًا سرّ إعجاب والدى بك وتقديره لك ، ولقد عشت عمرى كله أثق فى تقديراته ،

وأحترم آراءه ، إلَّا أن هذا لم يكن كل الأسباب ، فقد أحببتك ، وأصبحت بالنسبة إلىَّ جزءًا من أحلام المستقبل ، وربما لو كنت قد علمت بحالتك المرضية منذ البداية لهيَّأت نفسى لتقبُّلها ، ولتغلَّب الحب على ما عداه من عقبات ، إلَّا أن معرفتى بالأمر جاءت كالصدمة ، ولم أكن مهيَّئًا لها ، حتى لقد شعرت بالمهانة ، لأننى لم أعرفها منك ، قبل أن يخبرنى بها الدكتور (صادق) ..

وربما بدا لك حكمى قاسيًا ، غير عادل ، إلا أن شعورى فى تلك الليلة قد خلط الأمور كلها فى رأسى ، فالمستقبل الذى رسمته أنا ووالدى لى ، لم يكن فيه مكان لزوجة مريضة ، مما اضطرنى لفسخ خطبتنا ، وإلغاء كل ارتباطاتنا .

مرَّة أخرى أرجوك ألا تتسرَّعى فى الحكم علىَّ ، أو وصفى بالقسوة والنذالة .. فعلى الأقل أنا لم أُخفِ عنك شيئًا عن نفسى ، وكنت صريحًا معك منذ البداية ، فى حين أخفى والدك وأنت عنَّا أهم أمورك ..

وفى النهاية .. أرجو ألا تنقطع بيننا كل الصِّلات ، وألايكون فسخ خطبتنا سببًا لفسخ صداقتنا ، وأن يصلنى دوْمًا مايُطمئننى عليك ، ومع أطيب تمنياتى بالشفاء » .

(عادل)

إذن فقد حدث ما كانت تخشاه ..

لقد لفظها (عادل) ..

لفظها كعادته ببضع عبارات منمَّقة ، تؤدِّى فى النهاية إلى نتيجة واحدة واضحة ومحدودة ، بأنها لم تعُد سوى مريضة بائسة ، لا حقَّ لها فى الحب ، أو فى حياة زوجية طبيعية ..

وأغمضت عينيها فى ألم ، ثم عادت تحدِّق أمامها بلا هدف ، وقد راحت كرامتها الجريحة تنزف الدموع من عينيها ، على الرغم من محاولتها ألَّا تبكى ، وأن تستوعب الموقف فى قوَّة ..

ولكن مشاعرها أعلنت العصيان فى قوَّة وجبروت ، حتى بدا لها أن تخمد تلك الأنفاس ، التى تتردَّد فى صدرها ، لتنهى أمرها كله ، وشعرت بوحدة مطلقة قاسية ، وبعداء لكل البشر ، حتى نفسها ..

وفى تلك اللحظة دَلَفَ والدها إلى حجرتها ، وهو يقول فى بشر وتفاؤل :

ــ لقد أخبرنى الدكتور (منير) الآن أنه يمكنك العودة إلى منزلك و .....

تحجَّرت الكلمات فى حلقة ، عندما رأى شحوبها ، والدموع المتحجِّرة فى عينيها ، وهتف فى لوعة وجزع :

ـ (غادة) !!.. ماذا حدث ؟!

بدت له صامتة كتمثال من الحجر ، وعيونها تنزف الدمع فى غزارة ، وهى تحدّق فى سقف الحجرة بلاهدف ، ويدها تطبق على الخطاب ، فتناوله من يدها دون مقاومة منها ، وقد بدا وكأنها لم تشعر حتى بوجوده ، وراح يقرؤه ، ويدرك معاناة ابنته الحقيقية ..

لقد خشى ذلك منذ البداية ، منذ سمع كلمات (جمال أبو الفتح) ، خاصة وهو يعلم طريقة تفكيره ، وقوّة سيطرته على ابنه ، مهما كانت عواطفه نحو (غادة) ..

وحاول أن يجد من الكلمات ما يخفّف من وقع الصدمة عليها ، وهو يردّد فى نفسه :

ـ رحماك يا ربى بابنتى البائسة !! ألا يكفيها مرضها اللعين ، الذى يحاصر حياتها ، ويهدّدها بالموت ؟

فجأة .. أغمضت ابنته عينيها ، واكتسى وجهها بزُرقة مخيفة ، وراحت أنفاسها تتلاحق فى سرعة شديدة ، وانطلقت من صدرها زفرة مرعبة ، جعلت صرخته تدوّى فى أرجاء المستشفى :

ـ أنقذونى !! ابنتى تموت !! النجدة !! النجدة !!

فى نفس اللحظة كان الدكتور (منير) قد انتهى من إجراء إحدى العمليات الجراحية ، عندما اندفعت (سناء) نحوه هاتفة :

ـ لقد عاودت الأزمة (غادة) ، ووالدها يصرخ كالمجنون .

سألها فى توتُّر :

ـ هل أجرى أحدهم تدليكًا لقلبها ؟

أجابته فى جزع :

ـ إنها لم تستجب له ، والدكتور (وائل) يواصل محاولة تنشيط قلبها بالتدليك .

سألها وهو يسرع نحو حجرة (غادة) :

ـ وأين الدكتور (نبيل) ؟

أجابته متوتّرة :

ـ لقد غادر المستشفى منذ ساعتين ، ولا أحد يدرى أين هو؟

قال وهو يعْدُو نحو الحجرة :

ـ أعدُّوا ترتيبات نقلها إلى حجرة العناية المركَّزة على الفور ، وسأشرف على نقلها إليها بنفسى .

رآه الأب يغدو قادمًا ، فاندفع إليه هاتفًا :

ـ أنقذنى يا دكتور !!.. أرجوك .. ابنتى تموت !! أنقذنى !!

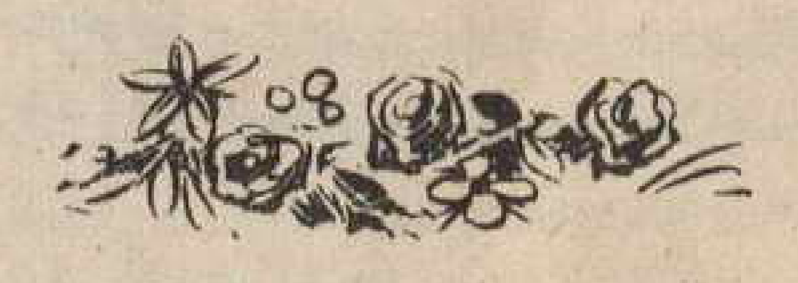
أبعده (منير) فى رفق ، قائلًا :

ـ اطمئن يا سيّدى .. سنبذل أقصى جهدنا من أجلها .. اطمئن ..

ولكنه ـ فى أعماقه ـ كان يشعر أنها تحتاج إلى أكثر من مجرّد الرعاية ..

تحتاج إلى معجزة ..

* * *



١٠ ـ العلم والإيمان ..

تردّد (نبيل) طويلًا ، وهو يقف أمام أحد المساجد ، وراودته أكثر من مرّة الرغبة فى أن يعود أدراجه ، بعد أن مضت ست سنوات لم يتقرّب فيها من الله ، (سبحانه وتعالى) ، ثم لم يلبث أن خلع حذاءيه ، وخطا داخل المسجد ، وهو يتطلّع فى رهبة إلى أضوائه الخافتة ، وذلك العدد القليل من المصلّين ، فى غير أوقات الصلاة ، وأحاطت به هالة روحانية افتقدها طويلًا ، مع مزيج من الحَيْرة والتوتُّر ، وكأنه سائح يرى مسجدًا لأوّل مرّة ، حتى وقعت عيناه على دائرة من البشر ، يجلسون حول رجل فى أواخر الأربعينات من عمره ، يرتدى زِىّ مشايخ المساجد ، ويلقى دروسًا دينية ، حول القيم والمبادئ الإسلامية ، وقد اكتسى وجهه بهالة نورانية وصفاء لا تخطئهما العين ، فوقف يتطلّع إليه صامتًا ، ثم أشار إليه برغبته فى التحدُّث إليه ، إلّا أن الرجل تجاهله تمامًا ، وتابع دروسه الدينية ، وكأنما لم يره .. فلم يجد (نبيل) أمامه سوى أن يجلس فى

مواجهة الرجل ، وسط حلقة الدرس ، وقد بهرته تلك الثقة والمهابة فى ملامحه ، وقد تعلّقت به العيون فى إجلال ومحبة وتقدير ..

ولم يكن هذا الشخص بغريب عن (نبيل) ..

كان شقيقه ..

نعم .. شقيقه الشيخ (صلاح) ، الذى يشعر نحوه أيضًا بالحبّ والمهابة والإجلال ، إلى جوار مشاعره الأخوية ، والذى يشعر فى مجلسه بالضآلة ، على الرغم من كَوْنه طبيبًا وجراحًا شهيرًا ، ويحسده على قوّته وصلابته ، اللتين تمتزجان بالرحمة والتسامح ..

ولقد تولّاه الشيخ (صلاح) برعايته وعنايته ، بعد وفاة أبيه ، وكان له بمثابة الأب ، وهو يحمل لمحات الرجولة منذ صباه ، فلم يتخلّ أبدًا عن صديق ، أو يحيد عن مبدإ ، وعندما اختار دراسة الشريعة وأصول الدين ، على الرغم من أن مجموعه يؤهله لدخول أيّة كلية يختارها ، لم يأبه لاعتراض أبيه وخاله ، بل كان له ما أراد ..

ولقد أصبح ــ كما اختار ــ واعظًا يدعو إلى الإسلام ، ويهدى إليه ، وكأنه قد نشأ لذلك منذ حداثته ، منذ كان

يحرص على أداء الصلوات ، وينفق وقت فراغه فى قراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ودراسة الفقه والشريعة ..

هكذا كان ، وسيظل شقيقه الشيخ (صلاح) ، رجلًا قويًا ، ذَا مميِّزات خاصة ، تؤهله لأن يحمل رسالة وضعها نصب عينيه ، فى صلابة ورجولة ، يمنعانه من الحياد عن الطريق الذى رسمه لنفسه دائمًا ..

وعندما انتهى الشيخ (صلاح) من إلقاء الدرس ، وانصرف مريدوه وهم يلقون عليه التحية بكل الاحترام والتقدير ، نهض إليه (نبيل) ، وهو يقول :

ــ كيف حالك يا شيخ (صلاح) ؟

أجابه (صلاح) فى صوت يحمل نبرة تأنيب :

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اجلس يا (نبيل) .

جلس (نبيل) إلى جوار شقيقه ، وقد خامره ذلك المزيج من الارتياح والضآلة ، أمام رجل عرف كيف يجمع بين الرحمة والصلابة فى حزم ، وسمعه يقول بنفس النّبرة المعاتبة :

ـ لم أعهدك مرتادًا للمساجد ، منذ قرَّرْت السفر إلى (لندن) .. فماذا حدث ؟

ـ ذهبت لألقاك فى منزلك ، فأخبرتنى زوجتك أنك هنا .

ـ وأى شىء ذكَّرك بى اليوم ؟.. إنك فى القاهرة ، منذ أسبوعين ، لم أرك فيهما سوى مرَّة واحدة .

شرد (نبيل) ببصره لحظات ، وهو يقول :

ـ أحتاج إلى مشورتك .

ارتسم مزيج من الدهشة والاهتمام فى عين الشيخ (صلاح) ، وهو يقول :

ـ بشأن ماذا ؟

ـ أتذكر (غادة) ؟

ـ غادة ؟!.. آه .. تلك الصغيرة ، جارتنا فى (العباسية) ، التى أردت يومًا أن تخطبها ، والتى سافرت بعد فشلك معها إلى (لندن) .

ـ إنها مريضة .. مريضة بمرض قلبىّ شديد ، وحالتها متدهوِرَة للغاية .. ولقد نقلوها إلى نفس المستشفى ، الذى جئته لفحص الحالات المشابهة ، وهى تطالبنى بإجراء جراحة لإنقاذها من آلامها .

سأله فى حَيْرة :

ـ وما الذى يمنعك ؟.. أليس هذا عملك ومجالك ؟

أجابه فى أسًى :

ـ مع حالتها السيئة لن تتجاوز نسبة النجاح خمسة فى المائة ، على أحسن الفروض .

صمت الشيخ (صلاح) بُرْهَة ، ثم سأله :

ـ وماذا لو لم تُجر العملية ؟

ـ ستحيا ما تبقَّى من عمرها فى خطر ، متجنِّبة أيَّة انفعالات .

ـ لن يختلف الخطر إذن فى الحالتين .

ـ إلى حدّ ما ، ولكنها لو اتبعت النظام والتعليمات بمنتهى الدقة ..

ـ كيف يمكن ضمان ذلك بالله عليك ؟.. إنها بشر ، وهى عرضة للانفعال فى أيَّة لحظة ، وخاصة مع كل هذا القدر من القيود ، ومع قلب يشعر بالخطر ، وبدُنُوّ النهاية فى كل لحظة ..

وصمت بُرْهَة ، قبل أن يسأله فى حزم :

ـ أمازلت تحبُّها ؟

أطرق (نبيل) برأسه ، دون أن يجيب ، فاستطرد الشيخ (صلاح) :

ــ لو أنك مازلت تحبها حقًّا ، فتوكَّل على الله ، وأجرِ لها العملية .

هتف (نبيل) فى هلع :

ــ مستحيل !.. قلت لك إن نسبة النجاح لا تتجاوز الخمسة فى المائة ، ولن أحتمل فكرة التسبُّب فى موتها .

أجابه الشيخ (صلاح) فى حزم وثبات :

ــ هناك من يموتون أيضًا فى أثناء إجراء جراحة الزائدة الدودية ، على الرغم من أن نسبة النجاح فيها تتجاوز الخمسة والتسعين فى المائة ، حتى بالنسبة لجراح مبتدئ .. الموت والحياة بيد الله (سبحانه وتعالى) وحده يا (نبيل) ، وتلك النسب التى تقيسون بها الأمور ، وفقًا لمقاييس طبية وعلمية ، هى نتاج حسابات ماديَّة دقيقة ولا شك ، ولكن رحمة الله (سبحانه وتعالى) لا تخضع لأيَّة نسب .. وما دام الخطر سيبقى دون الجراحة ، فمن واجبك أن تُجرِيَها ، وأن تثق فيما وهبه الله إيَّاك من فضل وموهبة .. ومن يدرى ، ربما كنت أنت أحد الأسباب ، التى هيَّأها الله (سبحانه وتعالى) لتلك

الفتاة ، لتنجو بها من الخطر ، وتحيا ما تبقَّى لها من العمر حياة طبيعية .

قال (نبيل) فى توتُّر :

ــ إنك تتجاهل المنطق العلمىَّ تمامًا ، وتنسى أن النتائج والتجارب هى مصباحنا فى الحياة .

قال (صلاح) فى حزم :

ــ يبدو أنك قد تشبَّعت بالمنهج العلمىَّ ، حتى أنك لم تعُد تؤمن بقُدرة خالِقك .

اعترض (نبيل) فى توتُّر :

ــ يا شيخ (صلاح) .....

قاطعه شقيقه فى صرامة :

ــ لِمَ جئت تطلب مشورتى إذن ، مادمت لا تؤمن بها ؟

علت الدهشة والحَيْرة وجه (نبيل) ، وهو يغمغم :

ــ لست أدرى .. لقد وجدت نفسى مدفوعًا إليك ، طالبًا مشورتك .

ارتسم الصفاء على وجه الشيخ (صلاح) ، وهو يقول :

ــ هذا لأنك تؤمن بمنهجى فى أعماقك ، وكل ما تحتاج إليه هو الإيمان ، والاقتراب من الله (سبحانه وتعالى) .. فكل

ما حققته من نجاح وشهرة وثراء لم يمنحك الثقة والطمأنينة اللتين تحتاج إليهما .. وعندما واجهتك تجربة تحتاج إليهما ، وتعلَّق بإنسانة تحبها ، بيَّنت لك تلك الحقيقة ، ورحت تتمنَّى لو أنك تمتلك من الإيمان ما يجعلك تقدم على إجراء الجراحة دون خوف أو رهبة .. لقد أدركت الآن فقط أن العلم ، مهما بلغ تقدُّمه ، يقف أحيانًا عاجزًا .. على عكس الإيمان ، الذى لا حدود له ، ولا يعترف بالمستحيل ، فلا مستحيل مع رحمة الله (سبحانه وتعالى) .. ابحث عن الإيمان فى أعماقك يا (نبيل) ، وعندئذ ستجد نفسك قادرًا على مواجهة الاختبار ، حتى ولو ماتت (غادة) بعد العملية ، سيستريح ضميرك ؛ لأنك بذلت أقصى ما يمكنك ؛ ولأنك لم تتقاعس عن مساعدتها ؛ ولأن هذه هى مشيئة الله (سبحانه وتعالى) سواء أجريت العملية أم لا ؛ ولأنه لكل أجل كتاب .

ظلَّ (نبيل) صامتًا ، تتنازعه مشاعر شتَّى ، حتى نهض الشيخ (صلاح) قائلًا :

ـ سأتركك الآن ، فقد حانت صلاة العصر ..

وابتعد عنه خطوتين ، ثم عاد يستطرد :

ـ لم لا تشاركنى إيَّاها ؟

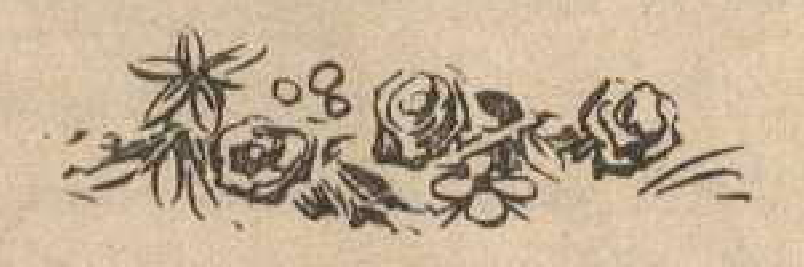
انتفض (نبيل) ، وكأنما سمع ما يرهبه ، فهو لم يقرب الصلاة منذ ست سنوات ، وكأنما هناك شىء بداخله يشعره بأنه غير جدير بالوقوف بين جموع المصلِّين ، على الرغم من أن ديانته فى جواز السفر هى الإسلام ..

ودوَّى أذان الصلاة ، دون أن ينهض (نبيل) من مكانه ، ودون أن يلبِّىَ نداء ربِّه ، ونداء شقيقه ، الذى قال فى أسًى :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » (صدق الله العظيم) .. هداك الله يا (نبيل) .

وعندما اتجه إلى الصلاة ، كان (نبيل) يغادر المسجد .. وكان قلبه يرتجف ..

* * *



١١ ـ مواجهة مع النفس ..

لم يكد (نبيل) يجتاز رَدهة قسم أمراض القلب ، حتى استقبلته (سناء) ، ووجهها يحمل علامات التعب والإرهاق ، هاتفة :

ـ دكتور (نبيل) ، حمدًا لله على حضورك .

سألها (نبيل) :

ـ ماذا حدث ؟

أجابته فى إرهاق :

ـ لقد عاودت الأزمة الآنسة (غادة) ، وقمنا بنقلها إلى حجرة العناية المركَّزة .

سألها فى اضطراب :

ـ متى حدث ذلك ؟

أجابته ملوِّحة بكفِّها :

ـ بعد مغادرتك المستشفى بساعتين .

انطلق يعدُو نحو حجرة العناية المركَّزة ، وهى تلهث خلفه ، وسألها :

ـ ما مدى خطورة حالتها الآن ؟

أجابته لاهثة :

ـ أظن أن الدكتور (منير) يسيطر على الأمر .

لم يطق صبرًا فى مرحلة التعقيم ، التى تسبق الدخول إلى حجرة العناية المركَّزة ، ولم يكد ينتهى منها حتى اندفع إلى الحجرة ، ورأى الدكتور (منير) يتابع رسَّام القلب الكهربائىّ وإلى جواره أسطوانة أكسوجين ، و (غادة) مستغرقة فى نوم هادئ ، فاقترب منه يسأله :

ـ هل نجحت فى السيطرة على الأزمة ؟

أجابه هامسًا ، وهو يشير إلى شاشة رسَّام القلب :

ـ إلى حدّ ما ، ولكن قلبها ـ كما ترى ـ قد بلغ حدًّا من الضعف يعجزه عن مواجهة أزمة أخرى .

ظلَّت عينا (نبيل) متعلقتين برسَّام القلب ، وهو يغمغم :

ـ نعم .. أعلم ذلك .. شكرًا لك يا دكتور (منير) ، على كل مابذلته من جهد .

ابتسم (منير) قائلًا :

ـ علامَ تشكرنى ؟.. إننى أؤدى عملى ، ولا تنس أنها حالتى ، قبل أن تُطالب أنت بتولِّى أمرها .

غمغم (نبيل) :

ـ حسنًا .. يمكنك أن تستريح الآن .. سأبقى أنا إلى جوارها .

ربَّت (منير) على كتفه ، قائلًا :

ـ لا بأس .. ستجدنى فى حجرتى ، لو احتجت إلى المعاونة . .

أومأ (نبيل) برأسه شاكرًا ، وهو يتطلّع إلى وجه (غادة) الشاحب ، فى حين انصرف الدكتور (منير) إلى حجرته ، وتقدّم (نبيل) نحو فراش (غادة) ، وغمره شعور جارف بالحبّ والحنان تجاه تلك المخلوقة الجميلة ، الممدّدة على فراش المرض ، وعاودته فى تلك اللحظة كل المشاعر والعواطف التى يكنّها لها فى قلبه ، والتى حاول أن يجعل منها مجرّد ذكرى ، لولا أن هزمته لحظة المواجهة ..

ما أعجب النفس البشرية !!..

لقد تصوّر أنه يعلم أدقّ أسرار القلب ، بحكم خبرته ، وبدراسته لأنسجته وصماماته وشرايينه ، دون أن يتأمّل يومًا ذلك المعنى الذى يصبغه به الشعراء ومؤلفو الروايات الرومانسية ، بل راح يسخر منهم ، ومن جهلهم بالقواعد

العلمية .. ولكنه يشعر الآن أنه يجهل الكثير عمّا لا يصل إليه مبضع الجرَّاح ..

واكتسى وجهه بتعبير حزين ، وهو يشعر بعجزه عن إنقاذ الإنسانة التى أحبها ، وبخوفه من الإقدام على الوسيلة الوحيدة لإنقاذها ، والتى لا تتجاوز نسبة النجاح فيها خمسة فى المائة ، مع خمسة وتسعين فى المائة من احتمالات الفشل ..

والفشل فى هذه الحالة يَعْنِى الموت ..

لقد عاش تلك اللحظات كثيرًا ، عندما يَهْوِى المريض فى غيبوبة طويلة ، تستغرق أربعًا وعشرين ساعة ، ثم تنتهى بإعلان القلب استسلامه ، وخمود حركته تمامًا ..

ودخلت (سناء) فى هذه اللحظة ، لتهمس فى أذنه :

ـ والد المريضة بالخارج ، ويرغب فى مقابلتك .

تمتم (نبيل) فى خفوت :

ـ ابقَىْ إلى جوارها حتى أقابلـه ، وأبلغينـى فور استيقاظها .

غادر الحجرة ليجد (عز الدين) أمامه ، فى حالة يُرثى لها ، وهو يتحرَّك جَيْئَةً وذهابًا فى اضطراب ، ولم يكد يلمحه حتى هَرْوَل إليه ، قائلًا :

ــ لقد أبلغني الدكتور (منير) أنها قد تجاوزت الأزمة ، أهذا صحيح ؟

أحكم (نبيل) رباط عنقه ، في محاولة لتهدئة أعصابه ، وهو يقول :

ــ نعم .. إنها نائمة الآن .

ثم دعاه إلى الجلوس في مكتبه ، مستطردًا :

ــ أعتقد أن كلينا يحتاج إلى قدح من الشاى ، يستردُّ به نشاطه .

وضغط زِرَّ الجرس المجاور للمكتب ، في حين ناوله الأب خطاب (عادل) ، وهو يقول :

ــ لقد عاودتها الأزمة بسبب هذا .

التقط (نبيل) الخطاب ، وقرأه في اهتمام ، ثم ألقاه قائلًا في أسًى :

ــ ياللمسكينـــة !.. ما أقسى ما تعـرَّضت له !! قلب يُحْتضَر ، وخطيب يهجرُها لمرضها بكل خِسَّة ونذالة .. أستاذ (عز الدين) .. إننى .. إننى .....

قاطعه الأب :

ــ ما زلت تحبّ (غادة) .. أعلم ذلك .. إنه خطئى أنا منذ البداية ، فلم يكن يصلح لها سواك .

ردَّد (نبيل) في ندم :

ــ وخطئى أيضًا ، فلم يكن ينبغى أن أتخلَّى عنها حينذاك .

ــ لسنا هنا لبحث أمر المخطئ .. لقد فات أوان الحساب ، ولكن قل لى : كم تبقَّى لابنتى ؟.. أخبرنى بالحقيقة ، مهما بدت قاسية .

ظلَّ (نبيل) صامتًا لحظات ، قبل أن يقول :

ــ أمامنا خياران ، أحلاهما مُرّ : الأوَّل : هو أن تظل في المستشفى ، تحت رقابة الأطباء ، لمدى لا يعلم سوى الله مداه ، مع مراعاة أن أيَّة أزمة جديدة قد تُنهِى نهايتها .. والثانى : هو أن نُجرِىَ لها عملية لتغيير صمامات القلب ، في ظل ما يعانيه قلبها من متاعب ، وقد يعيدها هذا الإجراء فتاة عاديَّة ، ولكن نسبة نجاح تلك الجراحة لا تتجاوز في المعتاد خمسة في المائة ، على أحسن الفروض .. فإما أن تنجح ، أو تمتد غيبوبتها أربعًا وعشرين ساعة ، وتنتهى بتوقُّف القلب عن العمل تمامًا .

صمت الأب طويلًا ، لايدرى ماذا يقول ، فسأله (نبيل) :

ـ أى الخيارين تختار ؟

امتدّ صمت الأب برهة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ ليس من حقّى الاختيار .. إنه حقها وحدها .

قال (نبيل) ، وهو يحدّق فى سقف الحجرة :

ـ لقد اختارت العملية ، على أن أجريها أنا .

بدا وكأن حالة من الهدوء النفسى قد انتابت الأب بغتة ، وهو يقول :

ـ على بركة الله إذن ..

وانحسم الأمر ..

* * *



١٢ ـ أُحِبُّك .. أُحِبُّك ..

انكمشت فى فراشها ، وأطلّت من عينيها نظرة تبعث على الأسى ، عندما رأته مُقبِلًا عليها ، واقترب منها محاولًا إمساك معصمها ، إلّا أنها أبعدت يدها فى عنف ، على الرغم من ضعفها ، وأخفتها تحت غطاء الفراش ، وقد ازدادت فيه انكماشًا ، فقال محاولًا بثّ الطُمَأنِينَةَ فى نفسها :

ـ أتخافيننى ؟..

أجابته فى يأس :

ـ لقد تخلّيت عنّى ، وهاهو ذا (عادل) يفعل الشىء نفسه .. لِمَ لاتدعنى أموت ؟

قال (نبيل) فى هدوء ، وصوته يحمل نفس النبرة المطمئنة :

ـ لأن الحياة أجمل من أن تتخلّىْ عنها ، وهى تستحقُّ أن نحارب من أجلها .

قالت فى حزن :

— أيّة حياة مع الغدر والهجر والوحدة والمرض ؟.. إننى بائسة تعسة ، الكل يتخلّى عنّى ويلفظنى .. إننى جثة على قيد الحياة .

مسح شعرها فى حنان ، وهو يقول :

— لا يا (غادة) .. لا تقولى هذا .. إنك ما زلت فى نظرى (غادة) الجميلة ، ذات الوجه الملائكىّ .. (غادة) التى أحببتها وتمنّيتها زوجة لى ، ومازلت أحمل هذه الأمنية فى قلبى .. لقد أخطأت عندما تصوّرت يومًا أن الفارق المادّىّ بيننا ، والجرح الذى أصاب قلبى من رفض أبيك لى يكفينان لإنهاء ما بيننا .. واليوم أدركت فداحة هذا الخطإ ، وأنك مازلت تعيشين فى قلبى ، وأن حبنا أعظم من أن تنهيه السنين .

قالت وقد زادتها كلماته حزنًا :

— أشكرك على محاولتك رفع روحى المعنويّة ، ولكننى لست أحتاج إلى شفقتك .

قال متضرّعًا :

— صدّقينى يا (غادة) .. أرجوك .. إننى مازلت أحبك ، أكثر من أىّ وقت مضى .

سالت الدموع من عينيها ، وهى تقول :

— أتعرف ما الذى تمنّيته منذ لحظات ، قبل أن تدخل هذه الحجرة ؟.. لقد تمنّيت أن تكون ذكريات حبنا هى آخر ما أغلق عليه عينىّ ، عندما أرحل عن هذه الدنيا .. فقد كان حبنا عظيمًا حقًّا ، ولست أحبّ أن تشوّهه بهذا المشهد التمثيلىّ .. أرجوك .. لا تفعل يا (نبيل) ، مهما كانت شفقتك نحوى .

تناول كفّها من تحت غطاء الفراش ، وأمسكها فى حنان ، وهو يقول :

— تطلّعى إلىّ جيّدًا يا (غادة) .. افعلى ولا تشيحى بوجهك عنّى .

أرادت ألّا تستجيب لتوسّلاته ، إلّا أنها لم تلبث أن رضخت له ، ورفعت عينيها إلى عينيه العميقتين ، وهو يستطرد :

— أمازلتِ تذكرين هاتين العينين ؟.. هل كذبا عليك يومًا ؟.

أجابته فى وَهَن ، وكأنما تحاول مقاومة تأثيره عليها :

— (نبيل) .. أرجوك .

تابع دون أن يلتفت إلى محاولتها :

ـــ صدّقينى يا (غادة) .. إننى أحبك ، ولم أتوقّف يومًا عن حبك ، وكل ما منعنى من التصريح لك بهذا هو خطبتك لآخر ، أمّا وقد انتهت هذه الخِطبة ، فلم يعُد هناك ما يحُول بينى وبين التصريح لك بحبّى ، وبأعلى صوتى فى المستشفى ، ربما يعيد إليك هذا ثقتك فى مشاعرى وكلماتى .

قالت وقد شعرت بالصِّدق فى كلماته ، ورأته فى عينيه :

ـــ وما فائدة ذلك الآن ؟.. إن حبنا سيمنحنا المزيد من الألم .. إننى أقترب من الموت ، ولست أحب أن أورثك العذاب برحيلى .

احتضن كفّها فى قوّة ، وكأنما يتشبّث بها ، وهو يقول :

ـــ لا يا (غادة) .. ستعيشين .. ستعيشين من أجلى .. ستعيشين ؛ لأننى لن أتنازل عنك هذه المرّة ، ولأننى سأسعى لإتمام زواجى منك ، الذى تأخّر ست سنوات كاملة .. لقد أحضرت لك خاتم الخِطبة ، وسأعلن خِطبتنا هنا فى المستشفى .

شملها شعور جارف بالسعادة والثقة بالنفس والإقبال على الحياة ، وهى تسمع كلماته ، وأدركت لحظتها أنها لا ولم ولن تحب سواه ، وابتسمت ابتسامة مشرقة ، على الرغم من شحوبها ، وهى تقول :

ـــ لست أحتاج إلى خاتم خِطبة .. إننى أحتفظ بخاتم خِطبتنا القديم .

قبّل كفّها ، قائلًا :

ـــ كنت واثقًا من ذلك يا حبيبتى .

تقلّصت ملامحها بغتة وهتفت فى جزع :

ـــ ولكن لا .. لن أسمح لك بمثل هذه التضحية من أجلى .

رفع وجهه إليها ، قائلًا :

ـــ أيّة تضحية ؟.. إن كلينا يحب الآخر ، وحان الوقت لنتم زواجنا .

قالت والألم يعتصرها :

ـــ أتحبّ أن تتزوّج جثة ؟

صاح معترضًا :

ـــ لا تصِفى نفسك بذلك .

هتفت :

ـــ ولكنها الحقيقة ، وأنت أكثر من يدركها ، فالحياة بقلب نصف مهترئ تجعل مِنّى جثة حيـة ، لا تصلح لحبّ أو زواج .. لقد عشت معك لحظات حلم جميل ، أشكرك

عليه ، ولكن حتمية الأمور تجعل من الضرورىّ أن نستيقظ منه ، ونواجهه ، فلا معنى لزواج يُخيّم عليه شبح الموت .

قال فى إصرار :

ــ لا يا (غادة) .. لن يفرّق الموت بيننا .. لقد قلت إنك ستعيشين ، وسأبذل أقصى جهدى لتحقيق ذلك .

غمغمت فى يأس :

ــ لا تَعِدْ بما لا تقدر على إنجازه .

قال فى حزم :

ــ سأجرى لك العملية الجراحية غدًا يا (غادة) ، وسأبذل كُلَّ جهدى من أجل الحفاظ عليك .

وعلى الرغم من أن إجراء العملية الجراحية كان مطلبها ، إلَّا أن رِعْدة سرَت فى جَسدها عندما ذكر (نبيل) أمرها ، فقد ذكَّرها ، ذلك باقترابها من الموت ، بعد أن تمنَّت أن يطول بها العمر ؛ لتنعم بتجدُّد حبِّها الدافئ ، الذى أحياه هو فى قلبها ..

إنها تخشى الآن إجراءَ الجراحة ، فلم يعُد الموت والحياة يتساويان عندها كذى قبل ..

إنها لا تريد أن تفقد الحياة الآن ، بعد أن عاد إليها الحب ..

لا تريد لقلبها أن يتوقَّف عن النبض ، بعد أن تراقص بين جوانبها حبًّا ..

وفى تردُّد غمغمت :

ــ ألن تسافر إلى (لندن) غدًا ؟

أجابها فى حزم :

ــ لقد ألغيت سفرى .. سأبقى لإجراء الجراحة .. سأتخلَّى عن أىّ شىء مقابل النجاح فى هذه الجراحة بالذات .

حاولت أن تبتسم ، وهى تحيط أصابعه بأصابعها ، مغمغمة فى ضعف :

ــ كم أتمنَّى أن أحتفظ بكلماتك وحبك إلى الأبد .. إنهما الشىء الوحيد الذى أخشى أن أفقده ، لو فشلت العملية .

وعلى الرغم من أنه لم يكن يملك ما يؤكد به قوله ، وعلى الرغم من كل ما تمتلئ به نفسه من مخاوف ، إلا أنه حاول أن يبدو أمامها قويًّا متماسكًا ، ليبعث فى نفسها الثقة والطُّمَأنينة ، وهو يقول مداعبًا :

ــ لِمَ هذا الحديث عن الموت ؟.. ألا تثــقين فى قدرتى كطبيب ؟.. سأطالبك بتعويض عن ذلك بعد العملية .

ابتسمت قائلة :

ــ سأكون راضية يا (نبيل) ، حتى لو متّ ، فيكفينى أن يكون وجهك هو آخر ما أراه :

انتفض فى ألم ، وقال :

ــ كُفّى عن هذا القول يا (غادة) .. أرجوك .. إنك بهذا تزيدين الأمر صعوبة ، وتضعفين ثقتى فى نفسى .

مدّت له كفّها ، فتناولها بين راحتيه فى حنان ، وجثا على ركبتيه إلى جوار فراشها ، وهى تهمس فى حُبّ :

ــ كما تشاء يا حبيبى .. لن أذكر الموت مرّة أخرى .. فقط دعْنِى أسمع من بين شفتيك كلمة أُحِبُكِ .. أسمِعْنى إيّاها .

ضمّ كفّها إلى صدره ، وهو يردّد :

ــ أُحِبُك يا (غادة) .. أُحِبُك .

ثم أضاف وعيناه تلتمعان بالدّمع :

ــ إلى الأبد ..

* * *

١٣ ــ المُعْجِزَة ..

انهار (نبيل) ..

غاص فى مقعده مُنهارًا ، ممتقع الوجه ..

لقد انتهى على التوّ من إجراء العملية الجراحية لـ (غادة) ..

بذل كل ما يمكنه ، خلال العملية ..

جمّد مشاعره ..

أوقف نبضاته القلقة ..

سمّر أصابعه حتى لا ترتجف فوق المشرط ..

نسى أنها أحب مخلوقة إلى قلبه ..

ولم يتوانَ فريق الأطباء المصاحب له لحظة واحدة ، وبذل الجهد والعرق لإنجاح العملية ..

ولكن قلبها الضعيف لم يحتمل ، ولم تجد كل المساعدات الطبّيّة له ، على الرغم من نجاح العملية طبيًّا ..

لقد حدث ما لا يملك أبرع أطباء العالم إزاءه شيئًا ..

توقّف القلب ..

ارتجف عدَّة مرَّات ، ثم توقَّف ..

ومع محاولات إنعاشه المستمرة ، عاد يخفق فى ضعف ، وسقطت هى فى تلك الغيبوبة العميقة ، التى تسبق الموت عادةً ..

وأصبح (نبيل) يعلم النهاية الحتمية ..

الوفاة بعد ما لا يزيد على أربع وعشرين ساعة ..

لم يعُد أمامه سوى أن يترقَّب رحيلها ، بين لحظة وأخرى ..

إنه لن ينسى — ما بقى له من العمر — جسدها الرقيق المسجَّى على الفراش ، على نحو أشبه بالموت ، لولا تلك الأنفاس التى تتردَّد عَبْرَ جهاز التنفس الصّناعى فى بطء ..

كانت عيناها مغمضتين ، إلَّا أنه شعر وَكأنهما ترمقانه بعتاب واتهام ، من خلف الأجفان المغلقة ، لعجزه عن الوفاء بوعده لها ..

ولكنه لم يقصِّر فى شىء ..

لقد كانت العملية مطلبها منذ البداية ، وكان الموت مصيرها ، سواء أجرتها أم لم تجرها .

ولكنه لن يغفر لنفسه أبدًا موتها على يديه ..

وراح يردِّد لنفسه فى مرارة :

— ما أقسى ذلك !! لقد شاهدتُ بعض المرضى يفارقون الحياة ، ولكننى لم أدرك بشاعة الموت وقسوته بقدر ما أدركته هذه المرَّة .. لن أطرق حجرة العمليات مرَّة أخرى .. لن ألمس مشرط الجراحة ما بَقِىَ لى من عمر .

ثم انخرط فى بكاء حارّ ، وراحَ ينتحب كطفل صغير ، مردِّدا :

— واحبيبتاه !! لقد أضعتك منّى مرَّة أخرى يا (غادة) .. سامحينى يا حبيبتى .. لم أكن وفيًّا لعهدك .

وصل الدكتور (منير) فى هذه اللحظة ، وحاول تهدئته قائلًا :

— لا تفعل هذا بنفسك .. إنك لم تخطئ .. لقد فعلنا جميعًا كل ما بوسعنا ، ولكن هذه مشيئة الله (سبحانه وتعالى) .. لا تجعل الحزن يقتلك .

قال منتحبًا :

— كان يمكن أن تحيا لبضع سنوات مقبلة ، لو لم نجرِ لها تلك العملية .

أجابه فى حسم :

— وكان من الممكن أن تحيا أطول ، لو نجحت العملية ،

ولكن الأعمار بيد الله وحده .. إنك جرَّاح كبير ، ويدهشنى أن تنهار على هذا النحو ، حتى ولو كانت المريضة تعنى لك الكثير ، فقد كنّا ندرك الاحتمالات مسبقًا .

قال (نبيل) فى صوت يحمل كل معانى الألم :

ــ الشخص الذى أمامك الآن هو (نبيل) فقط .. ليس الجرَّاح الكبير ، ولكن المحبّ الذى فقد محبوبته .

غمغم (منير) :

ــ إننى أُقدِّر عواطفك ، ولكن .....

قاطعه (نبيل) :

ــ أريد أن ألقى عليها نظرة أخيرة ..

ــ خطأ .. هذا سيزيد من آلامك .

ــ أرجوك .. نظرة أخيرة فحسب .

ــ حسنًا .. تعالَ معى .

صحبه إلى حجرة العناية المركَّزة ، حيث رقدت فوق فراشها ، واتصلت بجسدها كل الأنابيب والأسلاك اللازمة للإبقاء عليها فى غيبوبتها ، حتى يحين أجلها ، ووقف (نبيل) يتأمَّل وجهها الملائكىّ ، وقد علته صُفْرة الموْت ، واحتقنت عيناه بالدموع ، فقال (منير) :

ــ هذا يكفى .. دَعْنا نغادر المكان .

ــ لا .. أرجوك .. دَعْنى معها وحدنا بعض الوقت .

ــ ولكن .....

ــ أرجوك يا (منير) .. أرجوك .

رضخ (منير) لمشيئته ، وغادر الحجرة ؛ ليتركه معها وحدهما ، فاقترب (نبيل) من فراشها ، وجثا على ركبتيه إلى جواره ، وتناول كفَّها فى راحته ، وهو يردِّد باكيًا :

ــ اغفرى لى يا حبيبتى .. اغفرى لى .

وهتف من أعمق أعماقه :

ــ يا إلٰهى !.. أنت تعلم كم أحبها .. ساعدها .. أرجوك .. لست أجد فى نفسى القوة على فراقها .

وتوقَّف بغتة ، وتجمَّدت الدموع فى عينيه ، وقد تنبه إلى أمر عجيب ..

لقد استنجد بربه ..

ناشده فى محنته ..

لقد أدرك الآن أن مهارته وتفوُّقه لا يساويان شيئًا ، وأن رحمة ربه وحدها تَسَعُ كل شىء ..

تذكَّر كلمات أخيه الشيخ (صلاح) ، عن رحمة الله ، وتجاوزها لكل مُعْطَيات العلم ..

وآمن بها ..

نعم ..

إنه يعترف بجحوده وغروره البشرىّ الأحمق ..

يعترف بغبائه ، الذى جعله يؤمن بالأسباب ، دون ربّ الأسباب ..

وأدرك لحظتها ما ينبغى له أن يفعله ..

إنه سيصلّى ..

سيصلّى من أجلها ..

وغادر الحجرة إلى حجرته ، حيث توضّأ ، وراحَ يصلّى ..

لم يدرِ كم من المرّات سجد وركع ، ولكنه واصل صلاته حتى غمره شعور لا يمكن وصفه ، من الطُّمَأنينة والارتياح ..

وهنا راح يبكى ..

زرف أنهارًا من الدموع ، وهو يصلّى ، حتى انتهى من صلاته ، فغمره شعور رائع بالصفاء والسلام والارتياح ..

وفجأة .. اقتحم (منير) حجرته ..

اقتحمها بفرحة طاغية ، تختلط بذهول عالم ، وهو يهتف :

ــ (نبيل) .. دكتور (نبيل) .. لقد حدثت المعجزة .. لن يمكنك أن تصدّق هذا .. لقد عاد قلب (غادة) يعمل .. لقد انتظمت نبضاته بغتة .. إنها معجزة .. معجزة بكل المقاييس .. إن مريضتك ستحيا .. ستحيا حياة طبيعية ، بعد أن كانت على شفا الموت .

فاضت عينا (نبيل) بالدموع ، وهو يردّد مرتجفًا :

ــ حمدًا لله .. حمدًا لله .. شكرًا يا إلٰهى .. لقد أتت استجابتك لى بأسرع مما تصوَّرت .

واندفع إلى حجرة (غادة) ، ووجدها وقد فتحت عينيها ، وإن لم تستعد بعد قُدرتها على النطق والحركة ، فجثا إلى جوارها ، قائلًا :

ــ (غادة) .. أتسمعيننى ؟ .. أتفهمين ما أقوله ؟

أومأت برأسها فى صمت ، فأضاف فى صوت يقطر بالسعادة :

ــ ستعيشين يا (غادة) .. لقد نجحت العمليـــة .. وسيمكنك مغادرة المستشفى بعد أيام قليلة .. يمكنك الآن أن تودّعى الألم والحزن والخوف .

تطلّعت إليه فى امتنان ، وسالت دمعة صغيرة كحبة اللؤلؤ من عينيها ، فهمس :

ـــ لا تشكرينى أنا ....

وشاركها دموعها ، وهو يستطرد فى خشوع :

ـــ اشكرى الله (سبحانه وتعالى) ، فقد أنقذ حياتك بمعجزة .

وتناول يدها التى عادت إلى الحياة ، وأحاط إصبعها بخاتم الخِطبة ، ثم مال على وجنتها يقبّلها ، قائلًا :

ـــ لا يمكنك أن ترفضى الآن .

أطبقت على أصابعه بأصابعها فى حبّ ، فاستطـــرد والابتسامة تملأ وجهه :

ـــ لن أسمح لك بمغادرة المستشفى ، عندما تستردين قُواك .. سأستغلّ سلطتى كطبيب ، وأمنعك من مغادرتها قبل أن تضعى الخاتم الآخر فى إصبعى أنا ، قبل أن تعدِلى عن رأيك .

ابتسمت فى ضعف وسعادة ، وهو يضيف :

ـــ هناك خبر آخر أريد منك أن تعرفيه .. إننى لن أعود إلى (لندن) مرّة أخرى .. سأبقى هنا ، وسأبنى مستشفى خيريًا للفقراء والمعوزين .. لقد عاهدت الله (سبحانـــه وتعـــالى) على ذلك .

ونهض مفلتًا أصابعه من أصابعها ، ومردفًا :

ـــ سأتركك الآن ، فهناك موعد لا يمكننى التخلُّف عنه ، ولكننى سأعود .. انتظرينى .

ترقرقت الدموع فى عينيها ، وانفرجت شفتاها فى ضعف :

ـــ سأنتظرك يا (نبيل) .. سأنتظرك حتى آخر العمر ..

* * *

علا صوت المؤذِّن ، يؤذِّن لصلاة المغرب ، ووقف الشيخ (صلاح) يؤم المصلّين ، ويُنظم صفوفهم قبل بدء الصلاة ، ثم لم تلبث الدهشة أن علت وجهه ، وهو يرى شقيقه متصدِّرًا الصف الأوَّل من جموع المصلّين ، فاقترب منه ، قائلًا :

ـــ (نبيل) .. عجبًا !! .. لم أتوقَّع رؤيتك بين المصلّين هنا .

أجابه فى خشوع :

ـــ لقد هدانى الله يا شيخ (صلاح) ، وستجدنى بين صفوف المصلّين دَوْمًا بإذن الله .. فلقد رأيت رحمة الله تتحقَّق أمامى ، وتصنع معجزة يعجز عنها العلم .. ولقد آمنت بأنه هناك أشياء لا يجد لها الطب والعلم تفسيرًا ، فى حين لا يعجز قلب مؤمن عن تفسيرها ، كما فعلت أنت .. إنها رحمة الله ، التى أعادت (غادة) إلى الحياة ، بعد أن كانت على شفا الموت .

ابتسم الشيخ (صلاح) تلك الابتسامة النّورانية ، التى تشفُّ عن فرحته بهداية شقيقه ، وقال :

ــ سأذهب معك بعد الصلاة لرؤية (غادة) .

ثم تقدّم صفوف المصلّين ، وهتف من أعماقه :

ــ « الله أكبر » ..

واكتملت المعجزة ..

* * *

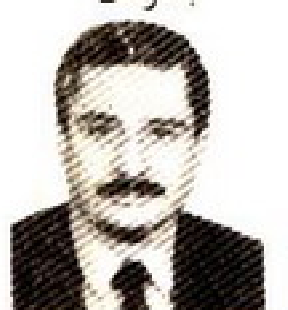
[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٧٨٤٨

زهور

ـــ سلسلة رومانسية رفيعة المستوى ـــ

المؤلف



أ . شريف شوق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

الحب والمعجزة

(سامى) و(عادل) و(نبيل) ..
ثلاثة رجال فى حياة (غادة)، ولكنها
تحب واحداً منهم فقط، بقلب ضعيف
واهن مريض .. وعندما سقط قلبها صريع
المرض، لم يبق لها سوى ذلك الذى
تحبه، ولكن هل تحيا لتنعم بحبه؟..
أم أنها تحتاج إلى معجـزة؟

٣١

ص
الثمن فى مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم